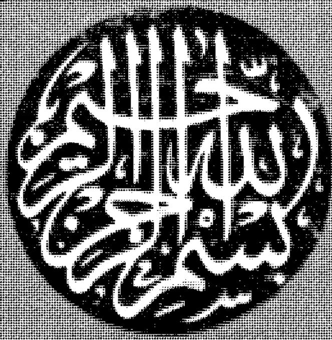
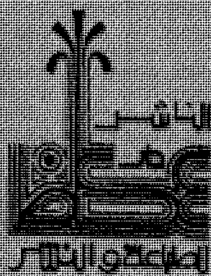


من أعلام الإسلام

بقلم

حسين القباني



من أعلام الإسلام

حسين القبانى

من أعلام الإسلام



جدة ـ طريق الميناء ـ ص . ب ٥٩٤١٠
الرياض ـ شارع التليفزيون ص . ب ٢٩٣٤٠

الفهرس

مقدمة ٧
حامل الراية ٩
الشهيد البطل ١٧
الوفاء العظيم ٢٧
الدار التى اختارتها السماء ٣٥
الفارس الزاهد ٤١
وامحمداه ٤٩
الفارس الفقيه ٥٧
ام الابطال ٦٥
الاخت المجاهدة ٧٣
قائد كتيبة الاهوال ٨١
الساخر من الشيطان ٨٧
المهاجرة الصابرة ٩٣
امن الجنة تفرون ٩٩
الجارود الذى فرح باسلامه الرسول ١٠٣
بطل بلا اضواء ١٠٩
اسامة بن زيد « اصغر قائد فى الاسلام » ١١٥

« مقدمة الكتاب »

لا يمارى أحد فى أن العرب بعد الإسلام قد ساهموا فى تطوير الحضارة الإنسانية إلى حد بعيد ·· ولا يستطيع أحد أن ينكر الأسس التى قامت عليها الحضارة العربية قبل انتشارها فى أنحاء العالم ·· إنها الأسس الإنسانية التى تمتزج فيها الروحانيات بالأخلاقيات مع احترام العمل المثمر ، والدعوة إلى التراحم بين البشر ··

وقد كان لنا فى رسول الله محمد بن عبد الله ، صلوات الله عليه وسلامه ·· الأسوة الحسنة فيما ترك لنا من مبادئ وقيم وأخلاقيات تزهو بها الحضارة الإنسانية على مر العصور ·· وقد كان لنا أيضا فى الخلفاء الراشدين ما يرفع رؤوسنا ـ نحن العرب ـ عالية بين الأمم لما تركوه لنا من قدوة صالحة فى عدالة الحكم ، وإنكار الذات ، والزهد فى مباهج وملذات الحياة ، والتفانى فى إعلاء كلمة الله ، وضرب الأمثلة العليا لنزاهة الحكم ·· وعدالة الحاكم ··

وكان ثمة رجال ونساء ـ بعد الخلفاء الراشدين ، وفى عهد الخلفاء ·· بل وفى عهد الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام ، يمكن أن نقول عنهم إنهم مصابيح للبشرية ، تضيء لها الطريق الصحيح بما أدوه من أفعال ·· وبما تركوه من أقوال ·· وبما عرف عنهم من نبل وكرم وشهامة ومروءة وإخلاص ووفاء وزهد وتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الله ··

وإن تصوير حياة كل واحد من هؤلاء الأعلام الكبار ليحتاج إلى صفحات بعد صفحات تملأ الكتب والمجلدات ·· وقد قام بهذا العمل الجليل ـ فعلا ـ رجال كرّسوا

حياتهم للكتابة بإسهاب عن هؤلاء الأعلام ‥ ولكن القارىء العربى ‥ فى هذا الزمن ‥ قد لايجد الوقت الكافى لقراءة هذه المجلدات العظيمة ‥ ولهذا السبب رأينا أن نقدّم هذا الكتاب الذى يحتوى بين دفتيه على صور من حياة عدد من هؤلاء الأعلام ـ رجالا ونساء ـ الذين أثروا فى الحضارة البشرية بالكثير من القيم والمبادىء الإنسانية ‥

وقد حرصنا على أن نستعين بالأسلوب القصصى ـ أى بعنصر التشويق ـ فى السرد ـ فى تصويرنا الموجز لحياة كل من هؤلاء الأعلام ـ حتى نساير الأسلوب العصرى فى الكتابة القائمة على عنصر التشويق ، وحتى يجد كل قارىء ، أيا كانت ثقافته ، متعة فيما يقرأ ‥

والله ولىّ التوفيق ،

المؤلف : حسين القبانى

« حامل الراية »

« يازيد أنت مولاى ومنى وإلىّ وأحب الناس إلىّ »

« من حديث للرسول الكريم ﷺ »

ذهبت السيدة زوجة حارثة بن شراحل الكعبى القرشى ذات يوم لزيارة قومها من قبيلة طئ ، وكان معها ابنها الصبى الصغير زيد ٠٠ وفيما هى مع أهـل الأم فى الحىّ ، إذ بجماعة من بنى القين يغيرون على نجع القبيلة ٠٠ كما كان الحال فى الجاهلية ، إغارات بعد إغارات ، وحروب صغيرة بين القبائل والبطون فى النجوع والقرى والمخيمات ـ وانتهت الإغارة بسبى عدد من الصبية ، بينهم زيد بن حارثة ، وكان قدره أن عرض للبيع فى مكة ٠٠ فاشتراه حكيم بن خزام لحساب عمته السيدة خديجة بنت خويلد ٠٠

وظل الصبى زيد فى خدمة السيدة خديجة حتى تزوجها الرسول الكريم ، محمد ﷺ ـ فوهبت له زيدا ٠٠ وكان يومذاك فى نحو العاشرة من عمره ٠٠ ولم يكن الرسول قد نزل عليه وحى الرسالة بعد ٠٠

وعاش الغلام فى كنف أحسن خلق الله خلقا وخلقا ٠٠ وكان من الطبيعى أن يجد الأمن والراحة والحب والرعاية من الذى اختاره الله سبحانه ليكون هداية للعالمين ٠٠ ولا عجب والأمر كذلك أن يرفض الغلام العودة إلى أهله ٠٠ فقد رآه قوم من أرض أسرته فعرفوه وعرفهم فدلوا أهله على مكانه ، فجاء أخوه جبلة بن الحارثة إلى الرسول الكريم وقال له :

ـ ابعث معى أخى زيدا ٠٠

فأجابه الرسول الكريم بقوله :

ـ هو ذا .. فإن انطلق معك لم أمنعه ..

ولكن زيداً أسرع يقول للرسول بصرت ملىء بالصدق والحزم :

ـ والله لا أختار عليك أحدا ..

ولما عاد جبلة إلى قومه دون زيد .. غضب والد زيد حارثة بن شراحل الكعبى ، وسحب أخاه ، عم زيد ، ومضيا إلى مكة حيث كان الرسول بالمسجد ، فدخلا عليه وقالا له :

ـ يا ابن عبد المطلب .. يا ابن سيد قومه .. أنتم أهل حرم الله ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئنا فى ولدنا زيد عبدك .. فامنن علينا وأحسن فى فدائه ..

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

ـ وماذاك ؟ ..

قال الأب :

ـ زيد بن حارثة .. نريد شراءه ..

قال عليه الصلاة والسلام :

ـ أو غير ذاك ؟ .. ادعوه فخيّروه .. فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء .. وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء ..

قال العم :

ـ لقد زدتنا على النصف ..

وأقبل زيد .. وسأله الرسول الكريم :

ـ هل تعرف هؤلاء ؟ ..

قال الشاب :

ـ نعم .. هذا أبى .. وهذا عمى ..

قال الرسول الكريم :

ـ فأنا من علمت ·· وقد رأيت صحبتى لك ·· فاخترنى أو اخترهما ··

فقال الشاب الوفىّ :

ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ·· أنت منى بمكان الأب والعم ··

فقال الأب والعم لزيد :

ـ ويحك يازيد ·· أتختار العبودية على الحرية ؟ ·· وعلى أبيك وعمك وأهل بينك ؟ ··

فقال زيد بصدق وحزم وثبات :

ـ نعم ·· إنى قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا ··

وهنا نهض الرسول من مجلسه وقد أعلن عتقه لزيد وتبنيّه له ، ثم مضى به الى مجلس قريش بالمسجد وقال :

ـ اشهدوا أن زيدا ابنى ·· أرثه ويرثنى ··

وامتلأ قلب والد زيد ، وعمه بالسرور ، وطابت نفساهما ، وانصرفا عائدين إلى بلادهما ··

وظل زيد يدعى « زيد بن محمد » ·· حتى نزلت الآية الكريمة فى سورة الأحزاب « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فإن لم تعلموا أباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم » وعندئذ عاد اسم زيد مقرونا باسم أبيه حارثة

*
* *

ولم يكن زيد بن حارثة بالرجل الذى يستهان به ، لأنه بدأ حياته ، وهو طفل ، عبدا يباع ويشترى ·· إن حادثة سبيه طفلا ، وحياته عبدا ، لم يؤثرا فيه كرجل شجاع كريم الأصل والمنبت ·· وحسبه شرفا أنه كان رابع أربعة فى دخول دين الله ·· الإسلام ·· بعد السيدة خديجة وأبى بكر الصديق وعلى بن أبى طالب رضوان الله عليهم جميعا ·· وإذا كانت السيدة خديجة أول سيدة فى الأسلام ··

وأبوبكر أول رجل .. وعلى بن أبى طالب أول شاب .. فقد كان زيدبن حارثة أول مولى من الموالى فى الإسلام .. هذا فضلا عن رجاحة عقله ، وسجاعته ، وثبات جنانه ، وقوة شكيمته فى الحرب مع الايمان الصادق ، والهمة المثلى ، مما جعله من أحب الناس إلى قلب رسول الله عليه الصلاة والسلام .. ولا عجب أن قال الرسول الكريم له ذات يوم :

ـ يا زيد أنت مولاى ومنى وإلىّ وأحب الناس إلىّ ..

وكانت شجاعته تؤهله لأن ينتدبه الرسول الكريم لقيادة السرايا الخاصة بتأديب الكفار والمشركين الذين يؤذون المسلمين ويقطعون عليهم الطرق ، ويحاربونهم فى كل مكان .. فكان الرسول يعقد لزيد لواء كل سرية لتأديب هؤلاء المعتدين على الإسلام والمسلمين .. وقد روى عن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت فى هذا الشأن :

ـ مابعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فى سرية إلا أمّره عليهم ، وكان ذلك كثيرا ، فما كان يعود من سرية حتى يتجهّز لأخرى ..

وكان زيد فى كل حملة تأديب عند حسن ظن الرسول الكريم به ، فما عاد من حملة إلا وهو يحمل لواء النصر .. وقد ذكرت المصادر وكتب السيرة أنه حمل اللواء لست حملات متتالية انتصر فيها .. وضرب المثل فى الشجاعة والبطولة والفداء ..

ومما يذكر له بالفخر فى هذا المجال أن الرسول عليه الصلاة والسلام عقد له لواء سرية موفدة إلى « وادى القرى » لقتال جمع من المشركين الذين أساءوا أشدّ الاساءة إلى جماعة من المسلمين .. لا لشىء إلا لأنهم يقولون « ربنا الله » .. وكان عدد المشركين أضعاف عدد السرية التى يحمل زيد لواءها .. فقتل كثير من المجاهدين المؤمنين .. وأثخن فيهم بالجراح .. فأمر زجاله بالكف عن القتال ، وبقى مع سريته فى مكان منعزل يعالج جراحه وجراح رجاله .. ويقسم أنه لن يغسل رأسه حتى ينتقم من هؤلاء المشركين ، فلا يعود إلى الرسول حاملا لواء الهزيمة ..

والتأمت الجراح ·· ومضى مع رفاقه مستترين نهارا ، مسرعين ليلا ، حتى فاجأوا المشركين فى معركة أخرى ، فسلّوا حركتهم ·· وشتّتوا شملهم ·· وانتصروا عليهم ·· وأسروا منهم عددا كبيرا ·· وكان بين الأسرى امرأة خبيثة دأبت على سبّ النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وتجهيز المشركين بالعتاد والسلاح ·· ولم يستطع أحد المقاتلين المسلمين عند رؤيتها أسيرة إلا أن يقتلها ، وهو يتذكر أذاها للمؤمنين ·

ولما عاد زيد من حملة « وادى القرى » منتصرا ، استقبله الرسول الكريم بالعناق ، وقبّله تكريما له ، وتقديرا لجهاده ، ودعا له بالخير ··

*

* *

وحدث فى السنة السادسة للهجرة أن أرسل النبى ﷺ « الحارث بن عمير الأزدى » بكتاب منه إلى أمير بصرى ـ وكان هذا الأمير من أمراء هرقل ـ يدعوه إلى الإسلام ··

فلما وصل إلى مشارف الشام فى منطقة تسمى « مؤتة » التقى به أحد ولاة قيصر الروم فى تلك المنطقة ، ويسمّى شرحبيل بن عمرو الغسانى ، وكان الغساسنة يدينون بالمسيحية ويتولون إمارة المنطقة الواقعة بين أرض الحجاز وامبراطورية الروم ··

وقال شرحبيل الغسانى للحارث بن عمير الأزدى :

ـ إلى أين ؟ ··

فقال الحارث :

ـ إلى أرض الشام ··

فتأمله الغسانى مليا ثم قال :

ـ لعلك من رسل محمد ··

فأجاب الحارث بثبات :

ـ نعم ٠٠ إنى واحد من رسل النبى محمد ﷺ ٠٠

وأشار الغسانى إلى أحد حاشيته ، ولم يلبث أن دخل عدد من جنوده فقبضوا على الحارث بن عمير الأزدى ومن كان معه ، ثم أمر الغسانى بقتله ، وإعادة من كانوا معه إلى النبى محمد ﷺ ٠٠

وحزن الرسول الكريم لمقتل سفيره حزنا شديدا ٠٠ وقرر أن يؤدب الغسانى وأولياءه ، حتى لايجرؤ مرة أخرى على قتل أى رسول يحمل رسالة النور إلى العالم ٠٠

*

* *

ولم يتعجّل الرسول الكريم الأمر ٠٠ وانما انتظر حتى تهيّأت الفرصة الملائمة ٠٠ فجّهز جيشا صغيرا لعدد ، قوامه ثلاثةآلاف مقاتل ، لأن حروبه الدفاعية ضد أعداء الإسلام لم تكن انتهت بعد ٠٠ وكان تجهيز الجيش بعد عامين من مقتل الحارث بن عمير الأزدى ٠٠ وقد جعل حامل لواء هذا الجيش ، زيد بن حارثة ٠٠ وأوصى بأن يحمل اللواء بعده جعفر بن أبى طالب ، ومن بعد جعفر يحمله عبد الله بن رواحة ٠٠

*

* *

وخرج الرسول الكريم يودّع الجيش الزاحف إلى تأديب الروم ٠٠ حتى إذا بلغ الركب ثنية الوداع ٠٠ قال الرسول الكريم ، ﷺ ـ يوصى أتباعه المؤمنين المجاهدين :

ـ « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدوّ الله وعدّوكم بالشام ٠٠ وستجدون فيها رجالا بالصوامع معتزلين فلا تتعرّضوا لهم ٠٠ ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا شيخا فانيا ولا تهدموا بناء » ٠٠

وهنا بكى عبد الله بن رواحة وهو القائد الثالث للجيش ، فقيل :

ـ مايبكيك ؟ ٠٠

فأجاب عبد الله :

ـ أما والله مابى حب الدنيا ، ولا صبابة بكم ، ولكننى سمعت رسول الله ﷺ ، يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها مكانة الشهيد عند الله ٠٠ فسالت دموعى شوقا للشهادة ٠٠

*

* *

وسار الجيش المجاهد بقيادة زيد بن حارثة حتى وصلوا منطقة « معان » ٠٠ وهناك جاءتهم الأنباء بأن الروم قد هيّأوا لملاقاتهم جيشا يبلغ تعداده المائة ألف ، فضلا عن جيش من قبائل غسان وحلفائهم يبلغ خمسين ألفا ٠٠

وشرع المسلمون المجاهدون يتبادلون الرأى والمشورة ٠٠ هل يدخلون فى معركة مع عدّو يبلغ عدده أضعاف عددهم ٠٠ لقد كان على كل مقاتل من المسلمين أن يواجه ثلاثين مقاتلا من الروم ٠٠ وعشرين مقاتلا من العرب المتنّصرين ٠٠ هذا فضلا عن بعد المسلمين الشاسع عن المدينة ومراكز إمدادهم ٠٠ وقال بعضهم « نكتب إلى رسول الله ﷺ ٠٠ نخبره بعدد عدوّنا ٠٠ فإما أن يمدّنا بالرجال ٠٠ أو يأمرنا بأمر فنمضى له ٠٠ » ٠

وهنا انبرى عبد الله بن رواحة يجمع المجاهدين على القتال ٠٠ ويدعو إلى الإقدام والتضحية والبذل ، وقد قال فيما قال :

ـ ياقوم ٠٠ والله إنّ التى تكرهون هى التى خرجتم تطلبون ٠٠ ألا وهى الشهادة ٠٠ نحن مانقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، مانقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا به ٠٠ فانطلقوا ٠٠ فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور ٠٠ وإما شهادة ٠٠

وهدأت نفوس المجاهدين حين سمعوا كلمات بن رواحة ، التى نزلت على قلوبهم بردا وسلاما ، وملأتها قوة وعزما وتصميما ، وزادتهم إيمانا على إيمانهم ، ورغبة فى إعلاء

كلمة الله حتى لو ضحوا فى سبيلها بأنفسهم ··

والتحم الجيشان فى معركة غير متكافئة ·· وقاتل زيد بن حارثة قتال الأبطال ، وكان فى الخامسة والخمسين من عمره ·· قاتل وهو يحمل اللواء الأبيض الذى عقده له الرسول الكريم ·· وامتلأ جسده الطاهر بالجراح ·· ولكنه لم يسقط حتى لايسقط من يده اللواء ·· وظل يقاتل ويضرب بسيفه حتى قيل عنه بعد ذلك « قاتل زيد براية رسول الله ﷺ حتى شاط فى رماح القوم » ·

وحرص قبل أن يلفظ آخر أنفاسه للقاء ربه فى جنة الخلد ، على أن يسلّم اللواء إلى جعفر ، فلا يسقط منه إلى الارض ··

وبلغ نبأ استشهاده رسول الله ﷺ فى اليوم نفسه ، فأطلع عليه الصحابة وعيناه تذرفان الدموع وهو يقول :

ـ « أخذ الراية زيد بن حارثة ، فقاتل بها حتى قتل شهيداً » ··

ثم قال :

ـ « اللهم اغفر لزيد »

وكررّها ثلاثا ··

واستقبل رسول الله الكريم أسرة زيد ، فرأى بنتا له تبكى ، فبكى لبكائها ، فقال له سعد بن عبادة رئيس الخزرج :

ـ يارسول الله ·· ماهذا ؟

فقال الرسول الكريم :

ـ هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ·· وإنما هى عبرات الصديق فقد صديقه ··

« الشهيد البطل »

« ما أدرى بأيهما أنا أسر ـ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر »

من حديث نبوى شريف

اشتد اضطهاد الكفار من قريش للمسلمين فى السنوات القليلة الأولى من نزول الوحى على النبى المصطفى ﷺ ·· ولكن المسلمين الأوائل كانوا يزدادون إيمانا على إيمانهم ، كلما ازداد إيذاء الكفار لهم ·· ولم يكن هؤلاء المسلمون المؤمنون من الفقراء أو المغلوبين على أمرهم أو الهاربين من بطش السادة والحكام كما حاول أن يزعم أعداء الإسلام ، وإنما كان فيهم العديد من السادة والأثرياء والشرفاء أمثال أبى بكر وعثمان بن عفان وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف ·· وجعفر بن أبى طالب ، شقيق على وابن عم النبى ·

وكان المسلمون الأوائل يعرفون أن وراء اضطهاد المشركين من قريش لهم ، سبب من أسباب كثيرة ·· إنه العصبية والتفاخر والمباهاة ، والاختيال والمكابرة والحقد ·· وقد عبر الطاغية أبو جهل عن هذا كله بقوله :

« تنازعنا نحن وبنو عبد مناف (أجداد النبى) الشرف : أطعموا فأطعمنا ـ وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ·· حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان ـ قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء · فمنى ندرك هذا ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه ·· »

وجمع النبى عليه الصلاة والسلام أتباعه المؤمنين ذات مرة بعد أن بلغ إيذاء

المشركين لهم مداه ، وقال لهم :

ـ تفرقوا فى الأرض ٠٠ فإن الله سيجمعكم ٠٠

فقالوا مستفسرين :

ـ إلى أين يارسول الله !

ـ لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ٠٠ وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه ٠

لم يتردد المسلمون فى تنفيذ إرادة النبى عليه الصلاة والسلام ، لاخوفا من كفار قريش ، ولا هربا من ألمٍ جسدى ٠٠ ولا طمعا فى ثراء أو مغنم ٠٠ وإنما إرضاء للنبى من ناحية وقد رأوه يتألم من أجلهم ، ويحمل الكثير من همومهم ، ولكى يبقوا على حياتهم حفاظا على الدعوة فى مهدها ، وانتشارا لها خارج نفوذ الكفار من قريش ٠

وهاجر إلى الحبشة الفوج الأول مكونا من خمسة عشر رجلا وامرأة منهم الزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبى عليه الصلاة والسلام ٠٠

وفى السنة الخامسة للبعثة المحمدية ، هاجر الفوج الثانى مكونا من ثلاثة وثمانين رجلا وامرأة ، بينهم جعفر بن أبى طالب وزوجته أسماء بنت عميس وأبناؤه محمد وعبد الله وعوف ٠

جعفر بن أبى طالب ٠٠

البطل المقدام ٠٠ والمؤمن الشاب ٠٠ ابن عم الرسول الكريم ٠٠ وشقيق على رضى الله عنه ، وابن أبى طالب من فاطمة بنت أسد بن هاشم ٠٠

ولما كان أبو طالب ـ عم النبى ـ كثير العيال ـ رقيق الحال ، فقد زاد العبء عليه بعد وفاة والده عبد المطلب ـ جد النبى ـ وسيد مكة وزعيم قريش ، وحتى يخفف النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعض العبء عن عمه ـ اتفق مع عمه الآخر ـ العباس ـ وكان موسرا ، على أن يتكفل كل منهما بولد من أولاد أبى طالب فتكفل

العباس بجعفر ·· وتكفل النبى بعلى ·

وكان جعفر من أوائل الذين أسلموا عندما كانت الدعوة تنتشر سرا من مركزها الذى اختاره الرسول الكريم ·· دار الأرقم بن أبى الأرقم ·· ولم يكن جعفر قد بلغ العشرين حين دخل فى دين الله ومعه زوجته أسماء بنت عميس ·· وكانت أمه فاطمة بنت أسد أول امرأة بايعت الرسول عند نزول آية مبايعة النساء للرسول ، كما كانت الحادية عشرة فى أوائل الذين دخلوا فى الإسلام ·

ولما أكرمها الرسول عند وفاتها وألبسها قميصه وصلى عليها ونزل منواها ونام لحظة فى قبرها ، قالوا له : مارأيناك يارسول الله صنعت ماصنعت بها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

إنه لم يكن أحد أبر بى منها بعد أبى طالب ·· إنى إنما ألبسها قميصى لتكسى من حلل الجنة واضطجعت فى قبرها ليهون عليها ·

وطابت الإقامة على نحو ما فى بلاد الحبشة للمهاجرين الأوائل من المسلمين ·· وتواترت الأخبار إلى كفار مكة أن هؤلاء المسلمين المهاجرين يجدون طيب الحياة ورغد العيش فى مهجرهم البعيد ، فخشوا أن يتكاثروا وأن يشتد عودهم ، وأن تكثر أموالهم وأن تنتشر دعوتهم بين الناس ، فقرر هؤلاء الكفار أن يكيدوا لهم وأن يرغموهم على العودة ليبقوا تحت إمرتهم خاضعين لنفوذهم ذائقين لعذابهم حتى يموتوا أو يعودوا إلى وثنية الآباء والأجداد ! ·

واتفق رأيهم على أن يبعثوا برسولين إلى ملك الحبشة وكبار الزعماء ورجال الدين « البطارقة » فيها ··

وحمل الرسولان الهدايا النفيسة النادرة المجلوبة من بلاد الروم والفرس وسافرا إلى الحبشة حيث وزعا الكثير من هذه الهدايا على (البطارقة) الحبشيين طالبين منهم أن يمهدوا لهم السبيل للمثول بين يدى الملك ·· نجاشى البلاد ··

وتمت المقابلة ·· ووضع الوافدان الهدايا الثمينة بين يدى النجاشى ، ثم قالا له :

ـ أيها الملك ٠٠ إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت ـ وقد بعثَنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من أبنائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم ٠٠ فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه ٠

ونظر النجاشى إلى البطارقة ٠٠ ولمح فى وجوههم أمارات التأييد لما جاء من أجله الوافدان ٠٠ وقد أعرب كبيرهم عن هذا التأييد بقوله :

ـ صدقا أيها الملك ٠٠ قومهم أعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فيرداهم إلى بلادهم وقومهم ٠

غير أن النجاشى لم يتسرع فى إصدار الأوامر ٠٠ فقد كان ملكا عدلا حصيفا حكيما فى تصرفاته ، عادلا فى أحكامه ، ومن ثم رأى أن من الحكمة والعدل وحسن التصرف أن يستمع إلى أقوال الطرف الآخر فى الموضوع ٠٠ فأمر باستدعاء بعض رجالهم ، فجاءوا وفى مقدمتهم جعفر بن أبى طالب متحدثا باسمهم ، مدافعا عن موقفهم :

وقال الملك :

ـ من أنت ؟ !

وأجاب جعفر بثبات :

ـ جعفر بن أبى طالب ومعه حزب الله ٠

ـ تقدم وتكلم ٠٠

ولما صار جعفر فى مواجهة النجاشى ، واقفا مرفوع الهامة ، لايفعل كغيره من الساجدين أمام الملك ، قال له أحد البطارقة فى غضب :

ـ مالك لاتسجد لملكنا العظيم ٠٠

فقال جعفر وهو أشد مايكون نباتا :

ـ معاذ الله أن نفعل ذلك ٠٠ إنّا لانسجد إلا لله عز وجل ٠٠

وشرع الملك يسأل .. فقال :

ـ ماهذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دين قومى ولا فى دين أقوام آخرين ..

فأجاب جعفر قائلا :

ـ أيها الملك .. كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونُسيء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونخلع ماكنا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لانشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ماجاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلمْ نسرك به شيئا ، وحرمنا ماحرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ـ فعدا علينا قومنا وعذبونا وفتنونا عن ديننا ـ ليردونا إلى عبادة الأوثان ، وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث ، فلما نهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحاولوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على سواك ورغبنا فى جوارك ـ ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشى مستفسرا :

ـ هل معك مما جاء به عن الله من شيء فتقرأه علينا ؟

فقرأ جعفر بن أبى طالب آيات بينات من أول سورة مريم حتى وصل إلى قوله سبحانه وتعالى :

« وجعلنى مباركا أينما كنت .. وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا ـ وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ـ والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

واشتد التأثر بالملك حتى سالت دموعه واخضلت لحيته ٠٠ ويختلف الرواة هنا ٠٠ هل كان النجاشى يعرف من اللغة العربية مايجعله يفهم آيات القرآن الكريم ٠٠ أم أن أحد البطارقة الملمين باللغة العربية ترجم له الحديث الذى دار بين جعفر وبينه ٠٠ ويميل معظم الرواة إلى أن الملك كان مثقفا ٠٠ وكان يتقن الحديث باللغة العربية لما كان بين بلاده وبين العرب من معاملات تجارية واسعة النطاق ٠

وأيًا كان الأمر ، فقد تأثر الملك أشد التأثر بالآيات القرآنية الكريمة ، أو بما تحمل من معان سامية عن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ثم توجه إلى رسولى قريش وقال لهما :

ـ إن هذا الذى سمعته والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ٠ اذهبا ٠٠ فلا والله ما أسلمهم إليكما أبدا ٠٠

ثم سأل جعفرَ :

ـ ماذا تقولون فى عيسى بن مريم ٠

فأجاب جعفر :

ـ نقول والله ماقال الله وما جاءنا به نبيُّنا ﷺ : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التى ألقاها إلى مريم العذراء البتول ٠

فابتسم النجاشى إلى المهاجرين اللائذين بأرضه وقال لهم :

ـ اذهبوا فانتم آمنون بأرضى من سبّكم غَرِم وما أُحبّ أن لى جبلا من ذهب وأنى أذيت رجلا منكم ٠

وقال لمن حوله من قومه :

ـ ردوا عليهما « أى على رسولى قريش » هداياهما فلا حاجة لى بها ، فوالله ما أخذ الله منى رشوة حين رد علىّ ملكى فآخذ رشوة فيه ٠٠ وما أطاع الناس فىّ فأطيعهم فيه ٠

وظل المهاجرون ينعمون بضيافة ملك الحبشة ورعايته ، يعملون على نشر رسالة

الإسلام بالحسنى والموعظة الحسنة ٠٠ ويقيمون شعائر الدين فى آمن واطمئنان ٠٠ ولكنهم مع هذا كله ، كانوا يمتلئون بالحنين إلى وطنهم والى الرسول الكريم ، ولا سيما بعد أن بلغتهم أنباء هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة ، وانتشار الدعوة بين القبائل ، واشتداد أوار الحروب بين المسلمين وأعداء الإسلام ٠٠ وهى حروب كان المسلمون يدافعون بها عن دينهم ، ولا ينشرون بها الدين كما يزعم المؤرخون وفرق كبير بين المدافع عن نفسه بالشجاعة والبطولة ، وبين الذى يفرض رأيه بالبطش والتنكيل ٠٠ ولم يستطع مؤرخ واحد أن يزعم أن المسلمين استعملوا السيف لإدخال أحد فى دينهم ٠

ومات أبو طالب ، والد جعفر ، فى السنة العاشرة من نزول الوحى ، فحزن جعفر لموت أبيه ، كما حزن النبى الكريم لموت عمه ، لأنه لم يكن قد هاجر بعد إلى المدينة وكان أبو طالب يبعد عنه الكثير من أذى قريش ، ويحول بمكانته ونفوذه بينهم وبين ابن أخيه ، وبموت أبى طالب اشتد اضطهاد المشركين للمسلمين ، حتى جاء أمر الله لنبيه بالهجرة إلى المدينة ٠

واستمرت الصلات بين المهاجرين المسلمين فى الحبشة وبين الأنصار وبين المهاجرين من المسلمين إلى المدينة ، حتى لقد بعث الرسول الكريم إلى جعفر فى الحبشة ليخطب له « رملة » التى أسلمت وكانت فى وفد مهاجرى الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش الذى ارتد عن إسلامه ، وعاد إلى قريش ، وبقيت هى على إسلامها فى المهجر ٠٠ فأراد الرسول الكريم أن يسرى عنها وأن يشرفها بخطبته لها حتى عادت مع جعفر وتم زواجه بها ٠

وكان عدد من مهاجرى الحبشة قد عادوا إلى المدينة ، ومن ثم أمر النبى الكريم بعودة الباقين جميعا ٠

وقد روى عن الرسول ﷺ أنه فرح بعودة جعفر فرحا شديدا وعانقه وقبله فيما بين عينيه وقال له « أشبهت خلقى وخلقى » ٠ وكاد جعفر يطير سعادة بتكريم الرسول

له . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد انتصر لتوه على اليهود فى خيبر ، فقال حديثه المروى عنه :

ـ ما أدرى بأيهّما أُسَرُّ ـ أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر .

وفى السنة الثامنة من الهجرة أعد الرسول الكريم ﷺ سرية من المسلمين قوامها ثلاثة آلاف من المؤمنين لتأديب الروم الذين قتلوا مبعوث النبى إلى ملك بصرى .

وتم إعداد السرية ، وبارك الرسول رجالها وقال لهم :

ـ أمير القوم زيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتضِ المسلمون رجلا فيجعلوه عليهم .

وعقد لهم لواءً أبيض وسلمه إلى أمير السرية زيد بن حارثة . ومشى ﷺ معهم يودعهم ، حتى إذا أبلغ ثنية الوداع ، أخذ ينصحهم بأن يستعينوا بالله فى جهادهم وأوصاهم بالحرص على آداب الحرب فى الإسلام فلا يقتلون النساء أو الأطفال أو الشيوخ أو المكفوفين وألا يهدموا المنازل أو يقطعوا الشجر .. وفى هذا كان الرسول قدوة لأبى بكر فى وصيته لأسامة بن زيد حين بعثه على رأس جيش لقتال الروم بعد وفاة النبى .

ودارت رحى القتال بين المسلمين والروم فى موقعة « مؤتة » .. وكان جيش الروم أضعاف أضعاف جيش المسلمين ، ولكن هؤلاء استبسلوا فى القتال يحدوهم نور الإيمان والرغبة فى النصر أو الشهادة .. وقتل زيد بن حارثة ، فحمل اللواء جعفر بن أبى طالب فراح يحارب ويناضل ، ويضرب بسيفه ـ واللواء فى يده الأخرى ـ يمينا وشمالا .. وهو ينشد قائلا :

ياحبـذا الجنـة واقترابهـا	طيّبـة وبـارد شرابهـا
والـروم روم قد دنـا عذابها	كافـرة بعيـدة أنسابهـا

علىَّ إنْ لاقيتُها .. ضرابها ..

وفزع مقاتلو الروم وهم يرون هذا القائد الباسل يعمل فيهم بسيفه ورأوا أن الفرار

أمامه سيؤدى إلى الهزيمة فنكالبوا عليه حتى تعذر على فرسه الحركة ، فنزل عنها وهو يضرب بالسيف ذات اليمين وذات الشمال ولمح أحد الأعداء يهم بركوب الفرس ، فعز عليه أن يركبها عدو من أعداء الله فانفلت إليها يذود عنها واستمر فى قتاله الباسل حتى بترت يمينه واحتضن اللواء بذراعه المبتورة وراح يضرب بالسيف فى رقاب الأعداء بشماله . وقطعت شماله فأمسك اللواء بما تبقى من ذراعيه يحتضنه إلى صدره وهو يتلقى الطعنات واقفا صامدا رافضا أن يسقط اللواء منه إلا مع آخر أنفاسه .

واستشهد جعفر وهو فى الثالثة والثلاثين بعد أن أمضى زهرة العمر مغتربا فى سبيل الدعوة التى آمن بها ، ومات من أجلها ؟

وقال عبد الله بن عمر :

ـ لقد استشهد جعفر بن طالب فالتمسناه بين الشهداء فوجدناه ووجدنا فى جسده بضعا وتسعين ضربة ورمية ليس منها واحده فى ظهره .

وهكذا يستشهد الأبطال .



« الوفاء العظيم »

« لو كنت متخذا من العباد خليلا ، لاتخذت أبا بكر خليلا .. ولكن صحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » حديث نبوى شريف ٠

الليل يسدل على الصحراء أستاره السوداء .. والنجوم تلمع فى السماء حينا وتخبو ـ بمرور السحاب حينا ، ولا تكاد تضىء من الطريق الصحراوى إلا اليسير ، وعلى الرغم من السكون المخيم على صفحة الرمال ، كان ثمة أصداء لأصوات تأتى من بعيد أو من قريب .. إنها هذه الأصوات الصحراوية التى يضخمها عادة خيال السارى فى بهيم الليل .. وتزداد رهبة إذا كان السارى يلتمس في هذه الصحراء وجبالها ملاذا يخفيه من أعدائه قبل أن يبزغ الفجر ..

ولم يكن السارى واحدا .. بل اثنان .. رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه الوفى ، أبو بكر الصديق رضى الله عنه .. إنها فى الليلة التى أذن الله فيها لنبيه الكريم بالهجرة من مكة إلى المدينة .. وكان الرسول الكريم يعلم أن كفار قريش لن يسمحوا له بالوصول إلى المدينة فى سلام .. وإنما هى المطاردة العنيفة الملحة .. وإنما هو الخطر المحدق بالرسول الكريم وصاحبه الوفى .. وإنما هى الصحراء بما فيها من ضباع وسباع .. وإنما هو الليل وما يطويه من مهالك وأخطار ..

النبى عليه الصلاة والسلام يسير مستخفيا لا يشغل باله إلا الرسالة النورانية التى خصه الله بها ليكون للعالمين بشيرا ونذيرا .. وإلا الخطر الذى يحف بهذه الرسالة ـ والأمانة ـ وإلا هؤلاء الذين أمسوا يطاردونه بعد أن اكتشفوا رحيله عن بيته ٠

والصديق الوفى لا يستقر على حال .. فهو حينا وراء الرسول الكريم .. وحينا يقفز

أمامه وأحيانا يخب عن يمينه أو يساره .. فيقول الرسول الكريم له :

ـ مالك يا أبا بكر ؟

فيقول الصديق الوفى :

ـ يا رسول الله .. أتذكّر الكلب « أى الطاردين » فأمشى خلفك .. وأذكر الرصد « أى المتربصين » فأمشى بين يديك .. ومرة عن يمينك ومرة عن شمالك .. لأؤمن عليك ٠

ويبتسم الرسول الكريم فى رضى لا يشوبه عجب .. إذ كيف يعجب من تصرفات صاحبه الوفى وقد لمس وفاءه وحبه وإخلاصه قبل نزول الوحى عليه وبعده .. كيف يعجب وهو يلمس فى صديقه وحبيبه وأول من آمن به من الرجال كل ما يمكن أن يرمز له وبه الحب الروحى العميق بين إنسان وإنسان .. الحب فى الله ولله .. الحب الذى وعد الله كل من يرتبطان به الجنة .. فما بالك بالرسول الكريم وصاحبه العظيم ٠

ووصل الصديقان الوفيان فى مسراهما إلى غار ثور .. وكان الفجر قد أوشك أن ينبلج، فقررا أن يلوذا به حتى يرجع المطاردون عنهما يأسا .. وتقدم الرسول الكريم نحو الغار .. ولكن الصديق الوفىّ يهتف به هامسا وهو يسبقه إلى مدخل الغار :

ـ مكانك يا رسول الله حتى استبرى لك الغار ، فإن كان به شىء نزل بى قبلك ـ فإننى إن هلكت فأنا رجل واحد من المسلمين .. وإن أصبتَ أنتَ هلكت الأمة ٠

ونزل الصديق الوفى أبو بكر .. واطمأن إلى خلو الغار من الخطر .. وزاد على ذلك ، فراح يستقطع من ثوبه ما يسد به بعض الثغرات التى رآها فى جوانب الغار ، والتى كان من المحتمل أن يكون بها حشرات مؤذية ٠

ولم يعجب الرسول الكريم مرة أخرى لما يرى من حب صديقه ووفائه وحنانه .. فهو عليه الصلاة والسلام لا ينسى الحادث الذى رواه من بعده عبدالله بن عمرو بن العاص ، والذى قال عنه :

« اجتمع المشركون من قريش وتذاكروا دعوة محمد وتسفيهه آلهتهم وتحريضه على

أصنامهم فبينما هم فى ذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوثبوا عليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون :

ـ أنت الذى تقول كذا .. وكذا ..

فقال الرسول الكريم :

ـ نعم .. أنا الذى أقول ذلك ..

ويستطرد عبدالله بن عمرو فى روايته فيقول :

« ولقد رأيت رجلا منهم أخذ بجميع ردائه ، فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه وهو يبكى ويقول أتقتلوا رجلا أن يقول ربى الله » .

وتلقّى ضربهم وهو يحمى الرسول بنفسه وأصابه من ذلك جرح عميق فى رأسه وقد قالت ابنته أم كلثوم فى هذا الموضوع :

ـ رجع أبى يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه .

ويبقى الصديق الوفى بجوار صديقه الرسول الكريم لا يكاد يفارقه ساعة من نهار إنه بجانبه فى كل خطوة من خطوات كفاحه لإعلاء كلمة الله .. ولقد بلغ به الوفاء وعمق الايمان برسالة الإسلام ، أنه وهو الأب الحانى العطوف ـ ما كان ليتردد فى قتل ابنه ، وما أغلى الأبناء على الآباء ـ إعلاء لكلمة الله .. ووفاء لرسول الله .. وإيمانا بدين الله ..

كان عبدالرحمن بن أبى بكر مع المقاتلين من كفار قريش فى معركة بدر .. وكان معروفا بالشجاعة والاقدام ، وبالبراعة فى استعمال السيف ، والإصابة بالسهام .. وقد أخذ عبدالرحمن يجول ويصول قبيل المعركة ويطلب من يبارزه من المسلمين .. ولم يتردد أبوه .. أبو بكر .. للوثوب لمبارزته والقضاء عليه أو الموت خجلا من موقف ابنه .. ولكن الرسول الكريم أبى أن يبارز الأبُ ابنه فمنعه من ذلك . ولما أسلم عبدالرحمن ، قال لأبيه فى صوت يملؤه البر والحب والحنان :

ـ كنتَ يا أبت هدفا لسهامى يوم بدر .. ولكنها انصرفت عنك برا بأبوتك واجتنابا

لعقوق الوالدين · فرد عليه الوالد بحزم :

ـ لو كنتَ أنتَ على مرمى سهامى يومذاك ، لما عدلت عن قتلك وأنا أراك فى صفوف المشركين أعداء محمد وراغبى قتله ·

وهكذا بلغ من حب أبى بكر ووفائه العظيم للرسول الكريم أن جعله ـ أى جعل الرسول ـ فى منزلة فوق منزلة الابن ..

ولم يعرف فى التاريخ كله حب ووفاء على هذا المستوى الرفيع ..

إن قصص الوفاء العظيم الذى يحمله قلب أبى بكر لصديقه الكريم رسول الله ، لتضىء بها صفحات مجلدات ومجلدات .. وقد ظل هذا الحب وهذا الوفاء ثابتين حتى الأيام الأخيرة من حياة الرسول فقد حدث ذات يوم ـ فى حديث لأيوب بن بشير ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر ، ثم كان أول ما تكلم به أنه صلى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر الصلاة عليهم ، ثم قال :

ـ إن عبداً من عباد الله خيرّه الله بين الدنيا وما عنده فاختار ما عند الله ·

ففهمها أبو بكر ، وعرف أن النبى إنما نفسه يريد فبكى وقال :

ـ بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا ·

فقال النبى الكريم :

ـ على رسلك يا أبا بكر ·

ثم قال :

ـ انظروا هذه الأبواب اللافظة فى المسجد فسدوها إلاّ باب أبى بكر فإنى لا اعلم أحدا كان أفضل منه فى الصحبة أبدا ...

ولم تكن هذه هى الشهادة الوحيدة التى شهد بها النبى الكريم على وفاء وحب صديقه أبى بكر · فقد حدث عن هذا الوفاء وعن هذا الحب فى مواضع كثيرة وفى مناسبات عديدة .. منها قوله عليه الصلاة والسلام :

« ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة .. ما عكّم حين ذكرت له .. وما تردد فيه » •

ولعل أبلغ ما قيل فى وصف المحبة والوفاء بين رجلين فى الله ولله ، قول الرسول عليه الصلاة والسلام فى أخريات أيامه :

« لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا .. ولكن صُحبة وإخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » •

ولو حاولنا أن نرد هذا الحب والوفاء إلى أصول ومنابع .. لوجدنا أن هناك منبتين أساسيين ينبت منهما هذا الحب .. وهذا الوفاء ...

شخصية الرسول وذاته وإنسانيته وبلوغه المثل الأعلى للفرد من البشر .. وامتلاء قلب أبى بكر بنور الإيمان الذى تحمله رسالة محمد عليه الصلاة والسلام ..

وكان كل من الصفتين يؤثر فى الأخرى أقوى تأثير .. حب أبى بكر للرسول يزيد من إيمانه برسالته وبعمق شعوره بها وعمق إيمانه برسالة النبى يزيده حبا ووفاء وولاء لصاحب الرسالة وحامل لوائها والمضحى بكل شىء فى سبيلها •

وهكذا اجتمع الحب والإيمان فى قلب صديق .. فإذا هما يشعان الوفاء العظيم •

ولم يقتصر وفاء أبى بكر وحبه للرسول فى حياة النبى فقط .. وإنما امتدًا أقوى ما يكونان وأسمى ما يكونان إلى ما بعد وفاته .. فرغم رباطة جأشه وثباته عند ذيوع نبأ وفاة الرسول الكريم واهتزاز إيمان الكثيرين من المسلمين تحت وطأة الخبر ، على الرغم من قوله لهم بحزم « من كان يعبد محمدا فإن محمداً فد مات .. ومن كان يعبد الله .. فإن الله حى لا يموت » • على الرغم من هذا فقد كان قلبه ينفطر أسى وحزنا على فقد رفيق عمره ، وصديق حياته .. إلا أنه لم يدع للحزن سبيلا لأن يقعده عن استكمال كل الأسباب لتدعيم الرسالة المحمدية ، ونشرها ، ومقاومته كل من يتعرض لها بسوء ..

ولعل موقفه من الذين حاولوا منع الزكاة من المواقف التى يسجلها تاريخ الوفاء

بأحرف من نور على مر الأجيال والعصور ..

لقد وجد أعداء الإسلام بعد وفاة النبى الفرصة سانحة لبث سمومهم بين القبائل البعيدة عن مكة ، ولما كان المال معادلا للروح .. ولما كانت الزكاة هى الفريضة الوحيدة من فرائض الإسلام التى توجب على المسلم القادر النزول عن بعض ماله لمستحقى الزكاة .. ومن ثم ظهر عدد من مدعى النبوة ينشرون دعوات دينية مزيفة ليس فيها مطالبة بمال .. واستطاع بعض هؤلاء الأدعياء أن يغروا بعض القبائل بالامتناع عن أداء الزكاة ، وأرسلوا إلى أبى بكر رضى الله عنه يقولون :

ـ مادام الرسول قد مات فلا ندفع الزكاة لأحد .

ورأى أبو بكر أن الأمر خطير .. بل أخطر مما كان يعتقد الكثيرون من الصحابة والتابعين . وكأن بعض هؤلاء يرون ملاينة هؤلاء القبائل والاكتفاء منهم بالشهادة والصلاة والصوم وأداء الحج لمن استطاع إليه سبيلا .. ولكنَّ أبا بكر كان أبعد نظرا .. إن التجاوز عن أداء فريضة من فرائض الإسلام عقب وفاة الرسول سوف يصبح تقليدا يمكن أن يستمر حتى يأتى زمن لا يبقى فيه من الإسلام إلا اسمه .

ومن تم قال عبارته المشهورة ردا على الذين يحاولون تهدئة الموقف :

ـ والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقاتلتهم على منعه .

وقال عمر محاولا تهدئة الموقف :

ـ كيف نقاتل أناسا مسلمين .. ألم يقل النبى « أُمِرْتُ أن اقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .. فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله ..

واشتد الجدل بين أبى بكر وعمر حتى أمسك أبو بكر بلحية عمر وهزَّه بعنف وهو يقول : « ويحك يا عمر .. أجبّار فى الجاهلية .. خوار فى الإسلام » ؟

واقتنع عمر بوجهة نظر أبى بكر على أساس المبدأ .. أى على أساس أن هدم ركن

ركين من أركان البناء ، سوف يؤدى إلى هدم البناء كله يوما ما ..

وقد زاد من صلابة أبى بكر أنه رفض واستنكر أن تستهين بعض القبائل المخدوعة بأعداء الإسلام برسالة النبى بعد وفاته .. وإن من الوفاء لهذا النبى أن يقوم هو بالأمر كما لو كان الرسول على قيد الحياة .

وركبت القبائل المرتدة رأسها .. بدأ الأمر بقبيلتى عبس وذبيان ، ثم انضمت إليهما بطون من بنى كنانه وغطفان وفزارة .. واحتشدت الجموع المرتدة عن الدين بالقرب من المدينة المنورة .

واتخذت هذه الجموع المقاتلة أماكنها حول منافذ المدينة ثم أوفدوا رجالا منهم للحديث مع كبار أهل المدينة وزعمائها فى محاولة لاستمالتهم أو مساعدتهم للتوسط عند أبى بكر ليمنعهم من الزكاة والاكتفاء بالفرائض الأربعة الأُخرى ولكنّ أبا بكر أرسل قولته المشهورة بأنه سيحارب من يمنع شيئا كان يؤديه للرسول .. ولو كان عقال بعير ..

وفرر المرتدون أن يدخلوا فى قتال مع أبى بكر ولا سيما حين وجدوا المدينة مكشوفة ليس بها من يدافع عنها أو يرد الحشود عن منافذها .. ولم يكن هذا خافيا على أبى بكر .. ومن ثم جمع المسلمين واعتلى المنبر وقال :

ـ إن الأرض كافرة .. وقد رأى وفدهم قتالكم ولا تدرون أليلاً يأتون أو نهاراً وقد كانوا يأملون أن نقبل منهم رأيهم ونوادعهم ، وقد أبينا ونبذنا عهدهم فاستعدوا وأعدوا .

وكان حراس المدينة قد أرسلوا إلى أبى بكر ينبؤنه بتجميع مانعى الزكاة حولها فطلب منهم ـ من الحراس أن يلزموا أماكنهم .. وكان المرتدون ينتظرون سدول الليل لينقضوا على المدينة غدرا وهم واثقون بأنهم لن يجدوا فيها من يقاومهم ..

ولكن أبا بكر الذى درس على يدى صديقه النبى فنون القتال على أعلى مستوى بادر المرتدين وخرج عليهم بجيش من المسلمين الثابتين على الإيمان وجعل له ميمنة وميسرة ، واندفع ليلا إلى مشارف المدينة حتى إذا انبلج الفجر كان قد صار على مرمى

السهام من الأعداء دون أن يحس هؤلاء بشيء ٠

وهكذا فاجأهم أبو بكر وأعمل فيهم السيف ففزعوا .. وتفرقوا .. وولوا الأدبار ..

وظل الصديق الوفى وراء المرتدين يوما بعد يوم .. وقبيلة بعد أخرى ، ومدعيًّا للنبوة بعد مدعٍ ، حتى دان له الجميع وأدوا الزكاة .. وعادوا إلى ما كانوا عليه من قوة الإيمان وصدق النية ..

ولم يلبث أبو بكر ، بعد عامين من وفاة الرسول الكريم ، أن لحق به ، يحدوه إليه حب عظيم .. ووفاء عظيم .. وإيمان أعظم ..

وهكذا نرى أمامنا علما من أعلام الإسلام ، ورمزاً عظيماً للوفاء ، ومثلاً رائعا للصداقة والحب لله وفى سبيل الله .. وبطولة تمثلت فى صحبة الرسول الكريم ليلة الهجرة ، فيعرّض نفسه لما قد يعرض للرسول الكريم حتى يصل معه إلى المدينة فى سلام وأمان ٠



« الدار التى اختارتها السماء »

« أقرِىء الناس منى السلام ، ولينطلقوا بى فى أرض العدو وليبعدوا ما اسنطاعوا ، وهناك فادفنونى »
« أبو أيوب الأنصارى »

« طلع البدر علينا ، من ثنيات الوداع ـ وجب السكر علينا ، ما دعا لله داع ـ أيها المبعوث فينا .. جئت بالأمر المطاع ، جئت شرفت المدينة .. مرحبا يا خير داع » .

كانت كلمات النشيد تتردد بين السماء والأرض ، فتملأ القلوب سعادة وتفعم الأرواح غبطة ورضى ، وتشيع فى الجو المزيد من النور ، وبدا للناس المنشدين ، أن الشمس قد ازدادت إشراقا ، وأن هناك من حولهم ملائكة يحفون بهم ، ويرددون النشيد معهم ، بل لقد أحس المنشدون أن كل ما فى الكون ، من نخيل وشجر ، من طيور وزهور ، من نبات ينجم فى الأرض ، أو ضياء ينساب من السماء .. الحياة كلها .. بما فيها ومن فيها .. يردد النشيد معهم ترحيبا بمقدم حامل النور والهداية والايمان للبشر أجمعين .

وفى الطريق إلى المنشدين .. من مكة إلى المدينة .. كان الرسول النبى محمد عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، قد اقتربا من مشارف المدينة مع الموكب الذى خف إليهما لاستقبالهما بالنوق والجمال .. وكان الله سبحانه وتعالى قد حفظ رسوله الكريم وهو يغادر مكة مهاجرا إلى المدينة .. حفظه من الكفار والمشركين المتربصين به وبصاحبه .. حفظه وهو يأوى إلى غار ثور .. حفظه حين صرف أبصار المشركين عنه وعن صاحبه وهم فى مدخل الغار ، حفظه وهو مع صاحبه يشقان الصحارى والقفار فى ظلام الليل وما يكتنفه من أخطار ، وفى ضوء النهار وما يطويه من إرهاق وتعب واحتمال رؤية المطاردين لهما ..

« وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ،

والله خير الماكرين » صدق الله العظيم ..

ويشيع نبأ هجرة الرسول بين أهل المدينة ، فيخرجون عن بكرة أبيهم لاستقبال النبى الكريم الذى يحمل لهم أعظم ما يحمله إنسان لإنسان .. ويتردد نشيد الاستقبال على الشفاة نابعا من القلوب السعيدة .. والأنظار كلها تشخص فى الطريق الذى ينتظر أن تهل منه الأنوار المحمدية .. ويمضى ركب الرسول الكريم نحو الأنظار الشاخصة والقلوب السعيدة ، ولم يلبث الناس أن رأوا من بعيد مقدمة الركب .. وارتفعت الحناجر بالتكبير والتهليل والدعاء .. وترنم النساء والأطفال بالنشيد السعيد .. ومضت القصواء ، ناقة النبى ، تسير وقد هزها الطرب .. وتزاحم الجمع حولها فى حب وابتهال وسعادة .. وامتدت الأيدى تمسك بخطام الناقة .. واشرأبّت الأعناق وامتلأت العيون بدموع الفرح ، وانطلقت أصوات الهاتفين الداعين المكبرين .. الكل يريدون أن يملأوا عيونهم وقلوبهم بنور النبى ، حامل رسالة الهداية والإيمان إليهم •

وأخذ الجميع يتسابقون فى دعوة الرسول لينزل ضيفا عليهم .. كل واحد يريد أن يكون له شرف ضيافة الرسول الكريم فى داره .. الأصوات تملأ الفضاء ..

ـ ها هنا يا رسول الله .. ها هنا يا رسول الله ..

وتعلو الابتسامة وجه الرسول الكريم فتزيده نورا على نور .. ويمتلىء قلبه الكبير بالبشر وبالدعاء لأهل المدينة ، الأنصار الكرام ، ثم يقول للداعين المرحبين :

ـ خلوا سبيلها .. فإنها مأمورة ..

وكان الرسول الكريم يعلم أن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيحدد مناخ الناقة فى المدينة .. وأن السماء هى التى ستختار الدار التى تقف عند بابها القصواء .. وعندما أشرفت الناقة على منازل « بنى النجار » أخوال الرسول الكريم ، تعلقوا بخطامها ورجوا أن يكون الرسول فى رعايتهم .. فهم أهله .. وهو منهم .. ومن ثم فإنهم أحق الناس باستضافته ورعايته والدفاع عنه ضد كفار قريش ، وقد قالوا له :

ـ يا رسول الله .. هلم إلى أخوالك .. أقم عندنا .. فلدينا العدد والعدة والمنعة •

ولكن الرسول الكريم يعتذر بلباقة ولطف مكررا قوله إن السماء ستختار المكان الذى تقف عنده الناقة .. وكان عليه الصلاة والسلام يبتهل بقوله :

« اللهم خيره لى .. واختر لى .. » •

ولم يكن هناك موقف أسمى وأكرم من هذا الموقف .. فإن أهل المدينة جميعها سواء فى التكريم والإكرام .. وكان الرسول الكريم يعلم أن اختياره لدار شخص معين قد يكسر قلوب الكثيرين ممن كانوا يتمنون شرف استضافته .. ولذلك كان يبتهل إلى الله أن يختار له المكان عن طريق الناقة .. وكان يقول للذين يتسابقون إلى دعوته « خلو سبيلها .. فإنها مأمورة » •

وظلت القصواء تمضى فى درب المدينة لا تبالى بشىء .. وظل الجميع يسيرون حولها وكل واحد يتمنى أن تقف أمام بيته .. وأخيرا وقفت الناقة .. وتعالى هتاف القوم بالتكبير والدعاء ..

لقد وقفت القصواء أمام دار أبى أيوب الأنصارى .. أحد الذين نزل فيهم قول الله تعالى « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون » •

وكاد أبو أيوب ـ وهو خالد بن زيد النجارى ـ أن يطير فرحا لهذا التشريف الإلهى له ولداره . فلا عجب أن انهمرت الدموع على لحيته تخضلها من فرط السعادة .. ولا عجب أن أمسك بحبل الناقة يقبله ويمسح به وجهه .. ولسانه يردد « شرفتنى يا رسول الله .. أكرمتنى يا رسول الله » ..

وحُمِل الرّحل إلى داخل الدار .. ثم وقف بين يدى الرسول الكريم يدعوه لتشريف داره .. ولو استطاعت الدار أن تنطق فى تلك اللحظة لرددت نشيد الاستقبال الذى كان يردده أهل المدينة .. ولم تكن بالدار الكبيرة ، ولا بالقصر المنيف .. وإنما هى دار من حجرتين ، إحداهما تعلو الأخرى .. إلا أن اختيار السماء لها لتكون قصر الضيافة لخير خلق الله ، وخاتم أنبياء الله ، وحامل رسالة الهداية والنور من الله ،

جعلها تزهو على كل قصر منيف ، وتعلو شرفا على كل بناء ، بعد بيت الله الحرام .

واختار الرسول الكريم ، تواضعا ، الغرفة السفلى من الدار ، تاركا الغرفة العليا لأبى أيوب وزوجته .. ولكن أبا أيوب ، وهو الأنصارى الكريم ، أبت عليه نفسه أن يبقى فى غرفة تعلو غرفة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام .. فظل يلح عليه ويرجوه أن يصعد إلى الغرفة العليا .. فقال له الرسول الكريم :

- يا أبا أيوب .. إنه أرفق بنا .. وبمن يغشانا أن أكون فى أسفل البيت ..

ونزل أبو أيوب على رغبة الرسول الكريم .. ولكنه كان إذا تحرك فى الغرفة العليا مع زوجته أو ناما .. حرص على أن يتحركاويناما بجوار جدران الغرفة ، حتى لا يكونا فى وسطها ، فوق السقف الذى يظل نبى الهدى والإيمان والتوحيد ..

ومع هذا لم يسترح أبو أيوب ولم تطب نفسه لهذا الوضع ، فظل بالنبى الكريم يرجوه ويتوسل إليه حتى استجاب له ، مقدّرا مشاعره ، وصعد للإقامة بالغرفة العليا .

وظل الرسول الكريم مقيما بدار أبى أيوب ، حتى تم بناء مسجده فى المدينة .. وبنيت له حجرة بجوار المسجد .. حجرة من طوب وطين ليس فيها من متع الدنيا إلا حصير للنوم .. ولكنها كانت ممتلئة بالنور الذى لا يدانيه ضوء للشمس ولا نور للقمر ..

أما صاحب الدار السعيدة ، أبو أيوب الأنصارى .. فهو خالد بن زيد النجارى ، رضى الله عنه .

التقى بالرسول الكريم فى مكة وبايعه مع نفر من أهل المدينة .. ثم بايعه مرة أخرى فى بيعة العقبة الثانية ، وعاد إلى قومه بالمدينة ينتظر مقدمه السعيد إليها .

وكان أبو أيوب منذ أن أعلن إسلامه ، قد وهب نفسه للقتال والذود عن حرمة الدين ، فلم يتخلف عن القتال فى جميع الحروب التى خاضتها جموع المسلمين ضد المشركين والكفار فى كل مكان ، فكان دائما المقاتل المقدام فى بدر وأحد والخندق

وغيرها من المعارك .. مجاهدا تحت لواء الرسول الكريم ، طالبا النصر أو الشهادة ، مرددا دائما قول الله سبحانه وتعالى « انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » •

ومن ثم كان يقول عن نفسه سعيداً فى غير زهو أو اختيال :

ـ أحمد الله .. فإنى لا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلا ..

وقد فسر الفقهاء كلمتى « خفافا وثقالا » بقولهم النفور إلى الجهاد فى خفة الشباب وثقل الشيخوخة .. فى قلة أو كثرة .. فى سير على الأقدام أو ركبانا على الإبل والجياد .. فى حالتى العسر أو اليسر المادى ..

وعرف عن أبى أيوب الأنصارى أنه لم يقاتل يوما فى سبيل فىء أو مغنم أو مال ، وإنما نذر نفسه للقتال من أجل الدعوة الإسلامية ، ورد كيد أعدائها عنها .. فلم يعرف عنه أنه اتخذ لنفسه عملا للحياة الدنيا .. وإنما وهب نفسه للقتال والجهاد وحسب .. يخرج من معركة ، ليعد نفسه لمعركة أخرى .. وهو فى هذا كله المسلم المؤمن الورع التقى الزاهد الذى نزلت فيه وفى أمثاله آية (والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ..) •

ولا عجب بعد ذلك أنه كان من أحب الأتباع إلى النبى عليه الصلاة والسلام فكان يسأل عنه إذا افتقده فى مجلسه أو غاب عنه •

ويؤكد الرواة أن أبا أيوب الأنصارى كان يحارب فقط لنصرة الإسلام والمسلمين بهذه الحادثة البسيطة .. فقد حدث أن خرج جيش المسلمين لقتال بعد وفاة النبى بقيادة أسامة بن زيد ، وكان حدثا يافعا .. ولم يرض أبو أيوب أن يقاتل تحت إمرة شاب صغير ، فتخلف ، ولكنه ندم بعد ذلك ندما شديدا جعله ينحى على نفسه باللوم ، ويبكى أسفا وهو يقول :

ـ ما علىّ من استُعْمِل علىّ •

أى ما كان ينبغى أن أهتم بمن يقود الجيش ، مادمت أقاتل فى سبيل الله ، وليس فى سبيل من يتولى القيادة على •

وفيما عدا هذه الحرب ، لم يتخلف أبو أيوب عن حرب إسلامية فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، ولا بعد وفاته ، حتى جاءته المنية وهو يحارب ..

لقد اشترك فى حروب النبى كلها .. وفى معظم الحروب بعد وفاة النبى .. وانضم إلى جانب على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وحارب معه فى موقعتى الجمل وصفين ، وظل على ولائه للإمام على رضى الله عنه ، كما ظل على جهاده حتى خرج مع المسلمين لقتال الروم فى موقعة القسطنطينية ٠

ولما جرح فى تلك المعركة جرحا قاتلا ، سأله قائده قائلا :

ـ ما حاجتك يا أبا أيوب ؟

وابتسم أبو أيوب ، ولعل ابتسامته كانت تنم عما دار بنفسه فى تلك اللحظات ولعله أن رأى حينئذ ببصيرته راية الإسلام وهى ترفرف من الخليج إلى بحر الظلمات « المحيط الأطلسى » وقد جعلت شعوب المنطقة شعبا واحدا .. يدين بدين واحد .. ويتكلم لغة واحدة ، ويعبد الله وحده لا شريك له ..

ومن ثم قال :

ـ إذا مت فاركب بى .. ثم سُغ بى فى أرض العدو ما وجدت مساغا .. حتى إذا لم تجد مساغا فادفنى وارجع ٠

وأردف بأنفاسه الأخيرة :

ـ أقرىء الناس منى السلام ، ولينطلقوا بى فى أرض العدو ، وليبعدوا بى ما استطاعوا ، وهناك فادفنونى ٠

لقد أراد أبو أيوب الأنصارى ، خالد بن زيد الأنصارى النجارى ، أن يجاهد حتى وهو جثة هامدة .. أراد أن يحمل المجاهدون جثته بين صفوف العدو ، ويدفنوها فى أقصى مكان يمكن أن يصل إليه المسلمون فى تلك المعركة ..

ونفذت وصيته .. ودفن فى القسطنطينية ٠

رحم الله أبا أيوب .. فقد عاش مجاهدا .. ومات شهيدا ..

« الفارس الزاهد »

إن أخشا ما أخشاه على نفسى أن يقال لى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد : ياعويمر : هل علمت ؟ فأقول : نعم ·· فيقال لى فماذا عملت فيما علمت » ، من أقوال العالم الفارس الزاهد أبو الدرداء ·

قال رسول الله ﷺ حين رأى أبا الدرداء وهو يطارد الكفار فى المرحلة الأولى من موقعة جبل أحد :

ـ نعم الفارس عويمر ·

مع فروسية أبى الدرداء وبسالته فى القتال ، وإقباله على الجهاد بالسيف للدفاع عن رسالة النور والإيمان ، إلا أنه كان دائما يأخذ الأمور من زاوية الزهد فى الدنيا ، وكراهية التكالب عليها ، والطمع فى مغرياتها والافتتان ببريقها ·· فقد حدث أن كان أبو الدرداء واحدا من كبار القادة فى جيش عمرو بن العاص المتوجه إلى مصر لانقاذ أهلها من نير الرومان وطغيانهم ·· ولما أتم الجيش رسالته بعد أن استقبل المصريون رسل الهداية أعظم استقبال وعاونوهم على طرد شراذم الرومان ، اعتزل أبو الدرداء جانبا للعبادة والزهد ، فلم يطلب مغنما ، ولم يسع إلى رئاسة ولم يفكر فى ولاية يقوم على حكمها وإنما كان يقتصر على الجهاد لإعلان كلمة الله ··

ولما شارك فى فتح جزيرة قبرص مع معاوية بن أبى سفيان وعدد من الصحابة ، ولما رأى نصر الله المبين للمسلمين ، وما أصاب أعداء الإسلام من هزيمة وتستت ، اعتزل جانبا مرة أخرى وراح يتعبد ويتهجد ويبكى بكاءا مرا ·· فاقترب منه بعض أصحابه وقالوا له فى دهشة :

ـ ماسر بكائك وقد نصر الله المسلمين على أعدائهم ؟

ومر المؤرخ الإسلامى والصحابى الجليل ، ابن جبير على أبى الدرداء وهو فى هذه الحالة فشارك فى سؤاله قائلا :

ـ يا أبا الدرداء ٠٠ مايبكيك فى يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ٠٠ ؟

وقال أبو الدرداء :

ـ ويحك ياجبير ٠٠ ألا ترى ٠٠ ؟ ماأهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره ٠٠ فهذه أمة الرومان ظاهرة قاهرة لها الملك والسلطان فتركت أمر الله ٠٠ فصارت إلى ماترى ٠

ولعل أبا الدرداء فى تلك اللحظة كان ينظر إلى ماوراء السنين والأجيال ، ويحذر المسلمين من ترك أمر الله ٠٠ فهم فى قوة ومنعة وعلو شأن ماداموا فى رباط الله عاملين بأوامره ، تاركين نواهيه ، وهم فى تفكك وضعف وشتات أمر إذا فعلوا غير ذلك ٠٠

وبهذه الصفات الحميدة التى اجتمعت لأبى الدرداء فجعلت منه فارس الفرسان فى الحروب والزاهد فى متاع الدنيا والمقبل على رضوان الله بالعبادة والمتأمل فى معجزات الله التى تتجدد كل يوم ، هذه الصفات ، جعلت النبى ﷺ يقول عنه فى جمع من الصحابة :

ـ عويمر ، حكيم أمتى ٠٠

وجعلت أبا الخطاب عمر الفاروق يقول فى مجلسه ذات يوم :

ـ حدثونا عن الحكيمين ٠٠

فقيل له :

ـ ومن هما الحكيمان ٠٠ ؟

قال عمر رضى الله عنه :

ـ معاذ بن جبل وأبو الدرداء ٠

فقد كان معاذ بن جبل يقول وهو يصف حقيقة الإيمان :

« ماأصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لاأمسى ، ولا أمسيت مساء إلا ظننت أنى لاأصبح ٠٠ ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها بغيرها وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، وكأنى أرى أهل الجنة فى الجنة ينعمون ، وأهل النار فى النار يتعذبون »

أما أبو الدرداء فيقول عن العبادة :

« صم وأفطر ٠٠ وصل وقم ٠٠ واكتسب ولا تأثم ٠٠ ولا تموتن إلا مسلما ٠٠ وإياك ودعوة المظلوم »

*

* *

ومن أقواله فى الزهد :

ـ ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند بارئكم وأنماها فى درجاتكم ٠٠ وخير من أن تغزوا عدوكم فتضربوا رقابهم ويضربوا رقابكم ٠٠ وخير من الدراهم والدنانير ٠٠ ألا إنه ذكر الله ٠٠ ولذكر الله أكبر ٠٠ وقد صدق الله العظيم « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » ٠

وكان يؤمن تماما بأن الدنيا تملك نفسها للمستغنى عنها ٠٠ وأنها لاأمان لها للطامع فيها والمتهافت عليها ٠٠ إنها إذا أمتعته وأسعدته حينا بإقبالها عليه فإنما سنعذبه وتشقيه دهرا بإدبارها عنه ٠٠ ومن تم كان يقول :

ـ من لم يكن غنيا عن الدنيا فلا دنيا له :

أما المال ، فهو وسيلة فقط للعيش المعتدل ٠٠ وعلى الناس المؤمنين حق الايمان أن يأخذوه من حلال ٠٠ وأن يكسبوه فى رفق واعتدال حتى لايُصبح غاية بالجرى وراءه فى جنسع وتهالك ٠

« لا تأكل إلا طيبا ٠٠ ولا تكسب إلا طيبا ٠٠ ولا تدخل بيتك إلا طيبا ٠٠

وقد كتب لصاحبه ذات يوم يقول عن الدنيا ومتاعها الزائل :

« فلست فى شيء من عرض الدنيا إلا وقد كان لغيرك قبلك ، وهو صائر لغيرك بعدك •• وليس لك منه إلا ماقدمت لنفسك ، فآثرها على من تجمع له المال من ولد لك ليكون له إرثا ، فانما أنت تجمع لواحد من اثنين : إما ولد صالح يعمل فيه بطاعة الله فيسعد بما شقيت به •• وإما ولد عاصٍ يعمل فيه بمعصية الله فتشقى بما جمعت له •• والنصيحة النصيحة أن تثق بما عند الله من رزق •• وانج بنفسك •

وكان أبو الدرداء عقب إسلامه يبالغ فى الزهد والعبادة •• وكان يقيم فى سكن واحد مع سلمان الفارسى بالمدينة بعد أن آخى الرسول الكريم بينهما ، وكان أبو الدرداء يقوم الليل ويصوم النهار ، فأخذ عليه سلمان هذه المبالغة فى العبادة ، ولما حدثه سلمان فى هذا الأمر ، قال له أبو الدرداء :

ـ أتمنعنى أن أصوم لربى وأصلى له • ؟

فرد عليه سلمان بقوله :

ـ إن لربك عز وجل عليك حقا •• وإن لعينيك عليك حقا •• وإن لأهلك عليك حقا ، أعط كل ذى حق حقه •• صم وأفطر •• وقم ونم ••

وتوجه أبو الدرداء إلى النبى ﷺ يخبره بما كان من حديث سلمان معه ، فقال النبى صلوات الله وسلامه عليه :

ياأبا الدرداء •• إن لجسدك عليك حقا كما قال سلمان •

*
* *

ومن مميزات أبى الدرداء أنه مع شجاعته فى القتال وزهده عن متاع الدنيا وإقباله على العبادة خالصة لوجه الله ، كان معروفا أيضا بقوة الفراسة ، ومعرفة الرجال والنفاذ إلى أعماق نفوسهم ببصيرته المضيئة وورعه ، وكان أيضا فقيها فى أمور الدين يعرف حدوده ويلم بأركانه ، ويدرك أسراره وقد صاحب الرسول الكريم وسمع منه الكثير ، فلهذا كله اختاره عمر بن الخطاب رضى الله عنه لتولى القضاء والدولة الإسلامية تتسع وتترامى أطرافها •• وكان عمر قد رسم الخطوط العريضة للعدالة والحكم بين

الناس فى رسالته المشهورة إلى أبى موسى الأشعرى حين ولاه قضاء الكوفة • فقد قال له فيها :

« آس بين الناس فى مجلسك وابسط وجهك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق لايبطله شيء •• واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل •• الفهم •• الفهم •• فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سنة •• واعرف الأشياء والأمثال ثم قس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى الله أحبها لله •• » •

بمثل هذه العبارات البسيطة الواضحة وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه أسس العدالة فى الحكم بين الناس •• وقد اتخذ أبو الدرداء هذه الأسس ليقيم عليها أحكامه مع الالتزام بالحرص ••بل والمبالغة فى هذا الحرص ••فكان شديد التحقيق والتدقيق فى مراجعة مايعرض عليه من أمور الناس حتى لايضيع حق من صاحب وحتى لايلوذ مذنب بالفرار من العقوبة ••

وكان دائما يراجع نفسه فيما يصدر من أحكام ، فلا ينتهى منها بانتهاء الحكم فيها •• وإنما يعيد التفكير المرة بعد الأخرى حتى تطمئن نفسه ، ويدرك تماما أن حكمه لاشبهة فيه ••

وكان من عادته أن يقول لكل اثنين يأتيان للحكم بينهما « اذهبا اليوم وعودا غدا لتعيدا علىّ أمركما » وكان يستهدف من هذا أن يستوثق من صدق ماسمع منهما من قبل •• فقد علّمه حرصه أن صاحب الحق لايغير فى أقواله ولا يبدل فى نبرات صوته ولا يضطرب أو يتلجلج ••

وكثيرا ماكان يقول فى مجالسه :

ـ إنى أبغض أن أظلم أحدا •• ولكننى أبغض أكثر وأكثر أن أظلم من لايستعين علىّ إلا بالله العلى الكبير •••

بهذه الروح المضيئة بالتّقى والورع والزهد والشجاعة ، وضع أبو الدرداء أقوى الأسس للعدالة عند الحكم بين الناس ·· لقد استمد هذه الأسس من إيمانه العميق برسالة الحق والإحسان ونشر العدالة بين الناس لا فرق بين غنى ولا فقير ولا بين عبد وحر ·· ولا بين أسود وأبيض ·· إنها العدالة التى تستهدف الحق ووجه الله والسعى بالخير والمحبة والإنصاف بين الناس ··

وبهذه الروح المضيئة وقف بين أهل الشام حين رآهم يموجون فى ألوان الترف والمباهج قد أقبلوا على الدنيا بكل زخارفها وبدأوا يبتعدون عن نور الدين بسبب هذا الإقبال على الترف واللهو ، وقف بينهم يقول :

ـ ياأهل الشام ·· أنتم الإخوان فى الدين ، والجيران فى الدار ، والأنصار على الأعداء ، ولكن مالى أراكم لاتستحيون ·· تجمعون مالا تأكلون ·· وتبنون مالا تسكنون ·· وترجون مالا تبلغون ، قد كانت القرون قبلكم يجمعون فيوعون ، ويؤملون فيطلبون ، ويبنون فيوثقون ·· فأصبح جمعهم بدارا وأملهم غرورا وبيوتهم قبورا ·· أولئك قوم عاد ·· ملأوا مابين عدن إلى عمان أموالا وأولادا ·· من يشترى منى تركة آل عاد بدرهمين ·· ؟

ولم يكن أبو الدرداء يقول بفمه مالا يفعل ·· إذا كان قد طالب أهل الشام وغير أهل الشام بالزهد فى متاع الدنيا والاكتفاء بالكفاف الذى يقيم الأود ، مع العمل الدائم لرفعة شأن الدين والدفاع عن رسالة الله إلى نبيه الكريم ، فقد كان يضرب فى هذا كله المثل بنفسه ··

·· لقد كان تاجرا ميسورا الحال ، وكان ذا مال وفير ·· ولكنه خرج من هذا كله واكتفى من الدنيا بما يستر جسده وبما يقيم أوده مطمئن النفس بشرائه ما فى الآخرة وما وعد الله المؤمنين من نعيم مقيم ··

دخل عليه أصحابه وهو يعانى من المرض فرأوه راقدا على فراء من جلد الأغنام ، فقالوا له :

ـ لو شئت كان لك فراش أطيب وأنعم ··

فأجابهم وهو يشير بيده إلى السماء :

ـ إن دارنا هناك لها نجمع ٠٠ وإليها نرجع ٠٠ نظعن إليها نجمع لها ٠٠

ولعل أبلغ دليل على زهده فى مناصب الحكم والولاية ، أن يزيد بن معاوية خطب ابنة أبى الدرداء وكانت ذات جمال وذكاء ٠٠ فرفض أبو الدرداء زواجها من خليفة المسلمين ، وكان يزيد مكروها من جميع المسلمين بعد أن أرغم أبوه النـاس على مبايعته ، وأسرع وزوّجها بأحد فقراء المسلمين ٠٠ ففيرا فى المال والزخرف ٠٠ غنيا بالصلاح والتقوى وحسن الإسلام ٠٠ فقـال النـاس له كيف تفعـل هذا يا أبـا الدرداء ٠٠ »

فأجاب قائلا :

ـ ما ظنكم بالدرداء ٠٠ إذا قام على رأسها الخدم والخصيان وبهرها زخرف القصور ونظرت فى بيوت يلنمع فيها بصرها ٠٠ أين دينها منها يومئذ ٠٠

ومع زهد أبى الدرداء وورعه وتفواه ، ففد كان يكره العلم بلا عمل ٠٠ لم يكن يركن للعبادة وحدها ولا العلم وحده وإنما كان يحض على العمل مع العلم ٠٠ وهو فى هذا يفول « لا يكون أحدكم تقيا حتى يكون عالما ٠٠ ولن يكون بالعلم جميلا حتى يكون به عاملا » ٠

بهذه الروح المضيئة بالعلم والعمل ٠٠ بالزهد فى مباهج الدنيا والإقبال على نعيم الآخرة ٠٠ بالتواضع وحب الناس بالشجاعة وبذل النفس فى سبيل إعلاء كلمة الله ، عاش أبو الدرداء ومات وهو يضرب المثل للمسلم الذى حَسُن إسلامه ٠

« وامحمداه »

« اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » دعاء النبى الكريم للمجاهدة نسيبة بنت كعب وزوجها وولديها •

كان جبل « أحد » خارج المدينة المنورة يسهد فى ذلك اليوم التاريخى معركة ضارية بين المسلمين المنتصرين ببدر وبين المشركين الذين جاءوا بجموعهم ليثأروا لهزيمتهم فى موقعة بدر ..

ودارت رحى القتال كما يدور القتال فى كل معركة فى ذلك الزمن .. بين مقاتلين راجلين وراكبين .. حاملين السيوف أو الرماح أو النبال .. وعلى الرغم من قلة عدد المسلمين المجاهدين بالنسبة لكثرة المشركين ، فقد انتصر المسلمون فى المرحلة الأولى من المعركة ، وولى المشركون الأدبار ، وطلب الرسول من عدد من أتباعه المقاتلين أن يقفوا بقمة الجبل مترصدين للأعداء وكان عليه الصلاة والسلام ببعد نظره ، وخبرته القتالية ، وما يملأ قلبه من نور الايمان يتوقع أن يكرّ المشركون بعد فرارهم إذا وجدوا الفرصة متاحة .. وقد حدث ما كان يتوقعه ، وانتهز المشركون فرصة انصراف الحراس عن قمة الجبل للمشاركة فى الفيىء والغنائم ، وكروا لمواصلة القتال والقضاء على الدعوة الإسلامية فى مهدها •

وصمد النبى الكريم مع عدد قليل من رجاله المناضلين أمام جحافل المشركين .. وكان بين المجاهدين المسلمين امرأة مجاهدة ، تتخلل صفوفهم ، وتحمل سقايات الماء للظامئين منهم ، وتضمد جراح المصابين ، وتحمس المقاتلين على المزيد من القتال والبذل ، وتردد القول بين الحين والآخر ..

ما أبالى ما أصابنى من أمر بعد ذلك ..

وكانت تقصد دعاء الرسول لها قبيل المعركة ..

فقد أسرعت نسيبة بنت كعب بن عمرو ، الأنصارية ، تحث الناس على الجهاد حين علمت أن الرسول قرر ملاقاة المشركين فى جبل أحد على الرغم من قلة عدد المسلمين وكثرة عدد الكفار .. وقد قالت لزوجها يومذاك :

ـ الآن حق الجهاد لنصر دين الله ..

فرد عليها زوجها زيد بن عاصم :

ـ حق الجهاد يا نسيبة .. فهيئى لى سلاحى ..

وقال ولداها اليانعان حبيب وعبدالله :

ـ نعم يا أماه .. لقد حق الجهاد فهيئى لنا السلاح ..

وقالت نسيبة رضى الله عنها :

ـ لقد هيأت لكم ولنفسى فإن الجهاد فى سبيل الله فرض على كل مسلم ومسلمة ..

وخرجت الأسرة بأكملها : نسيبة وزوجها وولداها نافرين إلى الجهاد فى سبيل الله حاملين السلاح والعتاد ، لا يبغون إلا نصرة الدين الذى اعتنقوه قبل أن يروا الرسول أو يسمعوا منه .. فقد آمنوا به وهم فى المدينة ، قبل هجرته إليها .. وقد أشهروا إسلامهم بين يدى الرسول فى بيعة العقبة الثالثة .. وبذلك كانت نسيبة فى طليعة اللاتى سارعن إلى اعتناق دين الله الحنيف ، والإيمان برسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم • ولا عجب أن كانت أسعد الناس قلبا وأعظمهم سرورا بهجرة النبى الكريم إلى المدينة حيث تستطيع أن تتشرف كل يوم بطلعته البهية ، وأن تنعم بأحاديثه القدسية •

وفيما كانت الأسرة ماضية إلى ملاقاة المشركين فى جبل « أحد » رآهم النبى عليه الصلاة والسلام ، فابتسم وقال لهم :

ـ رحمكم الله أهل بيت .. بارك الله فيكم أهل بيت ..

ورأت نسيبة أن تنتهز الفرصة التى لا تتكرر ، فقالت للنبى :

ـ يا رسول الله .. ادع أن نرافقك فى الجنة ·

ـ فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

ـ اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة ·

وظل هذا الدعاء يتردد فى قلب نسيبة وهى تؤدى واجبها فى المعركة فى مرحلتها الأولى .. ولما بدأت المرحلة الثانية التى اشتد فيها الأمر على المسلمين وقد شتتت مفاجأة المشركين لهم ، شملهم ، اندفعت نسيبة تقاتل وتناضل بين القلة القليلة التى صمدت فى المعركة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ورأت المجاهدة البطلة أن المشركين يركزون على قتل النبى للقضاء على الدعوة .. لأن أى نصر يحرزونه دون قتل النبى ، لن يكون نصرا ، وإنما هو فوز مؤقت لا يقدم ولا يؤخر .. وأسرعت نسيبة إلى الذين وقفوا يدافعون عن النبى الذى كان يقاتل بلا هوادة أو تراجع ، ولما رأت أن الكفار قد شرعوا سيوفهم لقتل الرسول فى محاولة أخيرة أطلقت صيحتها المشهورة التى رددتها الجبال والقفار :

ـ وامحمداه ..

وانقضت على جمع المشركين المحيطين بالنبى الكريم يريدون منه مقتلا فأعملت فيهم السيف مرة وهى عن قريب .. ثم تبتعد لتعمل فيهم القوس والسهام .. ثم تقترب لتضرب بالسيف مرة أخرى .. وتتراجع لتضرب بالنبال .. كل هذا ببسالة وشجاعة أصبحت مضرب الأمثال ·

وقد قالت وهى تصف ما حدث :

ـ خرجت أول النهار أنظر الناس ومعى سقاء فيه ماء · فانتبهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والدولة والريح للمسلمين .. فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمى بالقوس حتى صلصلت الجراح لى ·

وظلت أم عمارة تقاتل عن النبى الكريم وتحميه بجسمها ، وتتلقى عنه الطعنات ، وتضرب بالسيف حينا ، وبالسهم حينا ، حتى قالوا إن الرسول الكريم كان ينظر أمامه فيراها ، وينظر إلى يمينه فيراها .. وينظر إلى شماله فيراها .. فحيثما التفت رآها وفى يدها سيف تضرب به ، أو سهم ترمى به •

ولم يكن من عجب أن يضيق المشركون بها وببسالتها وببراعتها فى استعمال السيف والقوس ، بل فى إصراره على الشهادة حماية للرسول الكريم ، فشددوا عليها وشرعوا يضيقون عليها الخناق ليقتلوها أو ليصيبوها ويخرجوها من المعركة .. واستطاع أحدهم أن يصيبها بضربة سيف فى كتفيها ، فسقطت مضرجة فى دمائها •

وتقول أم عمارة عن إصابتها :

ـ لما ولىّ الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل ابن قمئة يقول :

ـ دلونى على محمد ـ فلا نجوت إن نجا .. فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير وأناس ممن ثبت مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فضربنى عدو الله هذه الضربة .. ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن اللعين كان عليه درعان •

ولما رأى الرسول الكريم الدماء تسيل من أم عمارة ، هتف بابنها يوصيه :

ـ يا ابن أم عمارة .. أمك .. أمك .. أعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت .. فمقام أمك خير من مقام فلان .. وفلان ..

وذكر أسماء بعض الصحابة والشهداء •

وبعد أن توقفت رحى القتال .. عاد المسلمون يتفقدون القتلى والجرحى وهم أشد ما يكونون ندما لعصيانهم تعليمات الرسول الكريم ، وأشد ما يكونون وعيا للدرس الذى تعلموه فى هذه المعركة .. وفيما هم كذلك ، إذا بهم يعثرون على أم عمارة صريعة الجراح ، والدماء تنزف منها ، ولكن بها رمق من الحياة ، فهتف بها أحد المسلمين ..

ـ نسيبة .. كيف أنت .. وما أصابك ؟؟

فقالت نسيبة وهى تلتقط أنفاسها ببطء :

ـ حدثونى أولا عن محمد نبى الله ، صلى الله عليه وسلم .. هل رد الله عنه كيد العدو فنجا ؟

قالوا وهم يحمدون الله :

ـ نعم يا نسيبة .. لقد رد الله كيد العدو إلى نحورهم .. ونجا الرسول الكريم ...

قالت وهى تحاول الجلوس :

ـ ساعدونى إذن لأذهب إليه وأراه بعينى ..

فقال أحدهم مدهوشا :

ـ هلا سألت عن زوجك زيد ، وولديك حبيب وعبدالله !!

فردت بحزم وصدق :

ـ لا تحدثونى عن غير محمد رسول الله ..

وهكذا كانت نسيبة تقيم الدليل ـ على كثرة الأدلة ـ على ما كان عليه المؤمنون الأوائل من تفانٍ فى حب رسول الله ، وإيمان بدين الله ، واستعداد للتضحية بالنفس والزوج والولد لإعلاء كلمة الله .

وظلت نسيبة على إيمانها وتقواها .. وشهدت بيعة الرضوان مع الرسول الكريم ، فلما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، وقفت بجانب خليفته الصديق أبى بكر فى حروبه مع المرتدين ما نعى الزكاة .. ولما ظهر بأرض اليمامة مدعى النبوة « مسيلمة الكذاب » أرسل إليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه جيشا لقتاله .. وقبل أن يتحرك الجيش ، قالت أم عمارة كما قالت يوم أحد :

ـ الآن حق الجهاد لنصر دين الله .

ولكن ولدها حبيب بن زيد قال لها ضارعا :

ـ أذهب وتبقين أنت يا أماه ..

وانطلق حبيب مع جيش المسلمين مجاهدا فى سبيل الله ، وتثبيت كلمة اللـه ، والقضاء على عدو الله فى اليامة .. ولكنه وقع أسيرا فى يد مسيلمة الكذاب ، مدعى النبوة .. وحاول الكذاب .. ان يثنى حبيبا عن دين الإسلام وأن يغريه بالكفر برسالة محمد ، فقال له :

ـ أتشهد أن محمدا رسول الله ... ؟

فقال حبيب بإصرار وثبات :

ـ نعم ·· أشهد أن لا إله إلا الله ·· وأن محمدا رسول الله ··

وتضيق عين مسيلمة الكذاب غضبا ويقول :

ـ أتشهد أنى رسول الله ؟

فيقول حبيب :

ـ أشهد أنك عدو الله .. الكذاب ابن الكذاب ..

وأمر مسيلمة الكذاب بتعذيب حبيب بن زيد حتى يصرفه عن دين الإسلام ، ولكن حبيبا احتمل الأذى والعذاب بصبر المؤمن الذى يجد فى كل عذاب من أجل دينه ، متعة لا تَعْدِ لها متعة .. أليس هذا العذاب هو الذى يقربه من الجنة حتى لقد قالوا : إن المؤمن المعذب ليشم ريحها فيتحول عذابه إلى راحة وسعادة !

وكلما اشتد مسيلمة فى تعذيب حبيب ، ازداد هذا إصرارا وثباتا ، وازداد صوتـه ارتفاعا بشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .. فبلغ الغضب بمسيلمة الكذاب أن أمر بتقطيع أعضاء حبيب عضوا عضوا .. فما كان من حبيب إلا أن راح يهتف بالشهادة بوحدانية الله وبرسالة نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم مع كل عضو يقتطع من بدنه حتى مات شهيدا شاهدا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ·

ولما بلغ نبأ استشهاده أمه نسيبة ، لم تحزن ولم تذرف الدمع ، وإنما قالت بهدوء

قائل :

ـ الآن لا ينوب عنى أحد فى الجهاد لنصرة دين الله ..

وحملت سيفها وجعبة سهامها مرة أخرى ، وخرجت للقتال فى سبيل الله ومعها ولدها الثانى عبدالله . ونذرت نسيبة ألا يصيبها غُسْل وألا يهنأ لها بال حتى يقتل مسيلمة الكذاب بيدها أو بيد أحد المسلمين .. ومن ثم حرصت على أن تكون السابقة إلى قتله ، فاندفعت تقاتل ببسالتها المعروفة وهى تشق طريقها إلى حيث يكمن مسيلمة الكذاب وراء المقاتلين ، وعلى الرغم من أن ذراعها بترت فى المعركة ، إلا أنها لم تتراجع ، وإنما قالت لابنها عبدالله تزيده حماسا :

ـ أنت الآن ذراعى ولا ذراع لى .. فاحمل على عدو الله حتى تقتله .

وحقق الله أملها فكان عبدالله أحد الذين تسابقوا إلى قتل مسيلمة الكذاب .

وتقول أم عمارة عن هذا الحادث :

ـ قطعت يدى يوم اليمامة ، وأنا أريد قتل مسيلمة وما كان لى ناهية حتى أرى الخبيث مقتولا ، وإذا عبدالله بن زيد يمسح سيفه بثوبه ، فقلت له « أقتلته » فلما قال نعم ، سجدت لله شكرا .

وهكذا بقيت أم عمارة إلى آخر يوم من حياتها وهى تضرب المثل والشجاعة والإقدام وعمق الإيمان ، والتضحية بالنفس والزوج والولد فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دين الله عليها رضوان الله « رحمكم الله أهل بيت .. بارك الله فيكم أهل بيت » صدق رسول الله .

« الفارس الفقيه »

(إن عاش هذا الصبى ، ليكونن له شأن كبير)

الطريق من حران بالعراق إلى دمشق بالشام طويل رهيب يصعد إلى الجبال ·· وينحدر إلى السهول ، ويلتف بالوديان ·· ويخترق الصحراوات ·· وهو فى الليل أشدّ رهبة ووعورة وقسوة ·· وهو أعنف مايكون ، وأقسى مايكون حين يضطر إلى قطعه فى غياهب الليل أشخاص هاربون يملأه قلوبهم الفزع ، وتلفّهم المخاوف ، وتستبدّ بهم الآلام وهم يتحسّسون الطريق فرارا من أعداء سفاحين لا يبقون على أخضر أو يابس ، ولا يرحمون طفلا ولا شيخا ولا مريضا ، ولا يتركون دارا قائمة ، أو نخلة باسقة ، أو كتابا سليما ·· إنهم جحافل التتار ·· إنهم الوباء الذى فتك بالعالم المتحضرّ يومذاك فأفناه ولم يبق منهم إلا القليل الذين استطاعوا ، بعد انحسار موجات هذا الوباء ، أن يحافظوا على ما تبقى من حضارة ومدنية ودين إلهى ··

وكان بين هؤلاء القليلين ، أولئك الذين خرجوا هاربين بأنفسهم من حران ، قاصدين دمشق ، حاملين ما خف حمله وغلا ثمنه ·· وما تحتاجه الرحلة الشاقة من زاد ومؤن ·· ومن بين هؤلاء أسرة مكوّنة من زوجين وثلاثة أبناء ذكور ·· ولم تحمل الأسرة معها إلا صناديق مليئة بكتب العلم والدين ·· ولا شىء غير كتب العلم والدين ·· فقد كان رب الاسرة من علماء المسلمين الذين وهبوا أنفسهم للعلم وتبصير المسلمين بأمور دينهم ، وتفسير ما يغمض عليهم من هذه الأمور ·· وكان بين الأبناء الذكور صبى لم يبلغ العاشرة من عمره بعد ·· عاش هذه الليالى القاسية وقد حفرت أحداثها فى ذهنه ·· إنه لا ينسى ليالى الهرب إلى دمشق ، لا ينسى كيف كان

يحمله أبوه فى الطريق حينا ، أو كيف كان يسير حتى تكلّ قدماه ، أو كيف كان يركب الدابة مع أحد أخويه بعض الطريق •• لا ينسى الليل الموحش ، والطريق الوعر ، والخوف من التتار وسنابك جيادهم التى كانت تحصد الناس حصاد المنجل للعشب ، هذا الطفل الذى خرج مع أسرته ذات ليلة هربا من جحافل التتار ، فى الطريق إلى دمشق ، هو أحمد تقى الدين المعروف فى التاريخ باسم « ابن تيمية » ••

واستقر المقام بالأسرة الطيبة فى دمشق •• واتخذ رب الأسرة ، والد ابن تيمية ـ مكانه فى المسجد الأموى بدمشق يعلم فيه الناس أمور دينهم ودنياهم •• ولم يلبث أن ذاع صيته •• واتسعت شهرته •• وعرف بين الناس بالفضل والورع والتقوى ، وبالفهم الصحيح لما جاء به الذكر الحكيم ، وعبادات وتشريعات لسعادة البشر فى الدنيا والآخرة ••

فى هذا الجو العلمى الدينى الخالص ، نشأ الصبى ، أحمد تقىّ الدين ، يأخذ عن أبيه ، ويتعلّم أصول الدين ، ويحفظ القرآن والأحاديث النبوية ، ويتصـل بالعلماء والفقهاء الذين كانوا يحضرون مجلس أبيه من كل فج عميق •• ولم يقتصر اجتهاده على علوم الدين والشريعة •• وإنما بَرز أيضا فى علوم اللغة وأسرارها ، وتعمّق فى فقهها حتى أصبح من أئمة علمائها ، والمشهورين بعلم أسرارها •• وكان يسعفه فى هذا كله عقل متوقد ، وذاكرة تدهش الناس بقوتها على الحفظ •• فقد حدث أن جاء إليه شيخ من شيوخ العلم •• سمع به وهو صبى ، فأراد أن يستوثق مما سمع ، فأملى عليه أحد عشر حديثا من الأحاديث النبوية ، ثم طلب منه أن يضع القرطاس جانبا ، ويعيد عليه تلاوة الأحاديث •• ولما فعل الصبى دون أن يخطىء فى كلمة أو حرف ، وضع الشيخ يده على كتف الصبى وقال لأبيه :

ـ إن عاش هذا الصبى ليكونّن له شأن عظيم ••

*

* *

وشبّ الصبى حتى صار فتى يافعا وسيم المحيّا ، أبيض البشرة ، كثيف اللحية ، أسود الشعر ، متوسط القامة ، جهير الصوت ، ذرب اللسان ، حلو الحديث ٠٠ ولا عجب ، فقد جمع مع علوم الدين والشريعة ، فقه اللغة ، والعلوم الرياضية التى نقلها العرب عن اليونان ، كما عنى بحفظ الكثير من دواوين الشعراء الكبار ، وأخبار العرب ، وتاريخ الأمة الإسلامية ٠٠

ولما بلغ من العمر اثنين وعشرين عاما ، مات أبوه ، فخلفه فى مسجد دمشق ، فكان خير خلف لخير سلف ٠٠ وتقول المصادر التاريخية ، إنه جاء فى الوقت المناسب ليسهم مع رجال العلم والدين والفضل للحفاظ على الأصول الدينية والتشريعية التى جاء بها الإسلام ضد الموجة التى سادت ذلك الزمن ٠٠ موجة الجدل والتجريد وإطلاق الاحتمالات البعيدة ليثبت الجدلىّ مدى علمه وقوة إقناعه ٠٠ لقد تفرّق الكثير من علماء الدين إلى مذاهب وشيع ٠٠ أساسها الجدل والمهاترة وحب الظهور ومحاولة الإقناع بكل الوسائل المنطقية الصحيحة أو المقلوبة ٠٠ ولكن ابن تيمية وقف فى وجوه هؤلاء يسفّه أراءهم ، ويستصغر محاولاتهم الجدلية العقيمة ، ويجمع الناس حوله بلسانه العربى المبين ، وبتفسيراته الواضحة لآيات الكتاب والأحاديث النبوية ـ كما كان الشأن فى عهد الرسول الكريم وخلفائه الأبرار ٠٠ فازدادت شهرته اتساعا ، وتوافد عليه التلاميذ والأتباع من كل حدب وصوب ، ينهلون من نبعه الصافى ، ويرتوون من علمه الغزير ٠٠

*

* *

ولكن علماء الجدل لم يتركوه فى حالة ، فكانوا يأتون إليه يجادلونه ، أو يدّسون عليه أبصارهم ليحرجوه بالأسئلة عن الجبر والاختيار ٠٠ هل الإنسان مخيرّ فيما يفعل فى هذه الدنيا أم مسيرّ ٠٠ ؟ فإذا كان مخيرًا فلماذا لا يسعد نفسه ، وإذا كان مسيرًا فلماذا يحاسب ٠٠ ؟

واستطاع ابن تيمية أن يصمد أمام هؤلاء الجدليين حتى أوغر صدورهم عليه ، وأثار حفيظتهم ، وقرروا أن يشوا به عند السلطان ‥ ولكن الأخبار تواترت بأن التتار قد وصلوا إلى حدود الشام ‥ وكان ذلك فى عام ٦٩٩ هجرية ‥ وكان ابن تيمية قد بلغ الثانية والثلاثين من العمر ‥ ولم يقبع فى مكانه بالمسجد عالما فقيها تاركا الناس يحاربون عنه وهو فى عنفوان شبابه ، وإنما اتخذ من العلم وسيلة لحث الناس على الجهاد والتضحية والاستشهاد وإعلاء لكلمة الله ، وذوداً عن دين الله ‥ واتخذّ من شبابه وبسالته وسيلة للاشتراك فى الحرب ضد التتار ، فكان الفارس الشجاع ، والبطل المقدام ‥ ولكن شجاعته لم تمنع الناس فى دمشق من الهرب منها خوفا مما كان يذاع عن التتار ومذابحهم وقسوتهم ‥ وبقى هو فى المدينة لايبرحها ، يؤدى واجبه فى تهدئة الباقين فيها ، ويعمل مع من بقى من كبرائها على تسيير دفة الحكم فيها ‥ وكان حكامها وكبراؤها وعلماؤها قد هربوا إلى مصر ‥ واستقر رأيه على أن يرسل وفدا ـ يكون هو على رأسه ـ إلى ملك التتار لمفاوضته على اعتبار مدينة دمشق « مدينة مفتوحة » أى لايدخلها الجيش ‥ ولا يعيث فيها فسادا ، وأن يؤمّن سكانها ماداموا لن يرفعوا السيف فى وجوه الغزاة ‥

وأنصت ملك التتار إلى خطابه ، وأعجب برباطة جأشه ، ووافق على بقاء جيشه خارج المدينة ‥ ولكن الجنود عاثوا فى الأرض فسادا ، فلم يتركوا شجرا ولا نخلا إلا قطعوه ، ولم يتركوا ثمرا إلا أحرقوه ‥ وأهلكوا الزرع والضرع ‥ ولم يسع ابن تيمية إلا أن يذهب مرة أخرى مع وفد إلى ملك التتار ‥ واستقبلهم الملك مرحبًا ، وأولم للوفد وليمة فاخرة ‥ وأقبل أعضاء الوفد على الأكل فى نهم إلا ابن تيمية ‥ فلم يمدّ يدا إلى طعام أو شراب ‥ فقال له الملك :

ـ مابالك لاتأكل من طعامنا ؟ ‥

فرد ابن تيمية عليه قائلا :

كيف آكل من طعام نهبتموه من أغنام الناس ؟ ‥ وأخذتموه من أفواه الجائعين ؟ ‥

وبعد ثلاث سنوات ، قرر ملك التتار أن يغير على دمشق فى طريقه إلى مصر ، وعاد الناس إلى الفرار ، ولكن ابن تيمية ثبت مع الثابتين ، واستغل قدرته على الإقناع فراح يحث الناس على الثبات والجهاد ، ويرغّبهم فى إنفاق المال لإقامة المتاريس وأسباب الدفاع •• واستطاع أن يجمع الهاربين ليصنع منهم جيشا مقاتلا يذود عن أرضه وعرضه •• وتقدّم هو فارسا مغوارا ، يناوش التتار ويؤخر زحفهم بعد دمشق •• وقد جاءت الرسل بأن جيشا مصريا فى الطريق لقتال الأعداء المغيرين •• ووصل جيش مصر فى الوقت المناسب ، وانضم إلى جيش الشام ، وتقدّم الجيشان ، وفى مقدمتها العالم الفقيه ابن تيمية ، حاملا سيفه •• ممتطيا جواده •• معرّضا نفسه للاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله •• وزحف الجيشان لمهاجمة التتار قبل أن يبدأ هؤلاء الهجوم ، وكانت تلك أول مرة يجد التتار أنفسهم يدافعون •• والتقت الجيوش فى الموقعة التاريخية المسماة « شقحب » بالقرب من مدينة دمشق ، وضرب ابن تيمية المثل فى الشجاعة والإقدام وبذل النفس ، حتى انتصرت جموع المسلمين ، وتراجع التتار إلى مسارب الجبال يحتمون بها ويلعقون فيها جراحهم •

وعاد ابن تيمية إلى مكانه فى المسجد الأموى بدمشق •• يعلم الناس شئون دينهم •• ويبصرّهم بأمور دنياهم ، ويشهّر بالجبناء الخائرين الذين تلّقوا الغزاة وسايروهم وصاروا لهم أعوانا على مواطنيهم وأهل دينهم •• وانتهز هذه الفرصة ليبينّ للناس أن ما أصاب المسلمين من هزائم أمام التتار إنما يرجع أولا وقبل كل شىء إلى استهتار الناس بأمور دينهم ، وإلى إقبالهم على شرب الخمر جهارا نهارا فى الحانات والمشارب بلا رادع ولا ضمير ولا وازع من دين أو سلطان •• وإلى ما انتشر من ألوان الفجور والإثم والترف •• وكل هذا يضعف العزائم ، ويشتت القلوب ، ويملأ النفس بالجبن عن ملاقاة الأعداء ، ويشيع الأثرة والأنانية فى صفوف الأمة ، وقد بلغ من تأثيره على الناس أن هبّوا معه إلى الحانات يحطمون أوانى الخمر ويريقونها فى التراب •• وينصحون الناس بأن يعودوا إلى دينهم وعقولهم التى وهبها الله لهم فلا

يطفئون نورها بالخمور والمهلكات ٠٠ وكم كانت فرحة الناس فى كل مكان وهم يرون عالما شجاعا ينفذ أحكام الدين ، ويعيد إلى الإسلام هيبته فى النفوس كما كان الأمر فى عهد الرسول الكريم وخلفائه الراشدين ٠٠

ولكن باقى العلماء أو من يسمّون أنفسهم بالعلماء ، لم يعجبهم هذا الحال ، ووجدوا أنهم سيفقدون مكانتهم فى نفوس العامة والخاصة ، وأن الولاة والحكام الذين كانوا يستخدمونهم ويستغّلون فتاواهم المغرضة لتحقيق أهدافهم الدنيوية ، لن يعودوا إلى الثقة فيهم مادام هناك عالم منهم يسفّه فتاواهم ، ويبطل أحكامهم ، ويطالب بعودة أحكام الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح أحوال الرعية ، فتآمروا عليه ، وراحوا يدسّون له عند الحكام اللاهين بأمور دنياهم ، ويوهمونهم بأنه يثير الفتنة بين الناس وأنه يريد أن يسعى إلى الحكم بالتفاف الناس حوله ، وانصياعهم لتعاليمه ، وظلوا على هذا الحال حتى استمع الحكام إليهم ، فاستدعى من الشام إلى مصر ٠

*

* *

وكان فى مقدور ابن تيمية أن يرفض السفر من دمشق إلى القاهرة ٠٠ وكان يعلم تماما أن الناس فى دمشق قادرون على حمايته والدفاع عنه إذا حاول الوالى أن يقبض عليه ويحمله إلى مصر على الرغم منه ٠٠ ولكن من كان مثل ابن تيمية فى ورعه وتقواه ٠٠ وفى شجاعته واعتداده بنفسه أمام أعداء الله ، لايخاف ولا يفزع ، وهو يعلم أن الله معه أينما يكون ٠٠ وأنه مهما حدث له ٠٠ فلن يصيبه إلا ماقدّره عليه ٠٠

وسار إلى مصر مع أخويه ـ زين الدين وشرف الدين ٠٠ وما كاد يصل إلى مجلس الحاكم حتى قبض عليه وأودع السجن قبل أن يدلى بأقواله ٠٠ ولم يكتف الحاكم بسجنه ، وإنما راح يقبض على كل من كان يتتلمذ على يديه ٠٠ ويؤمن بدعواه ٠٠ وبأعماله فى إعلاء كلمة الدين ، وسيادة شريعة الإسلام ٠٠

وبعد عام من سجنه ، توسّط له أهل العلم والفضل ليطلق الحاكم سراحه ، فاشترط الحاكم أن يكف ابن تيمية عن إثارة الناس ومحاربة البدع وتحطيم حانات الخمر ·· ولكن العالم الشجاع آثر السجن على أن يقيّد حريته فى العمل من أجل الدين والحق والفضيلة ··

وبعد عام آخر لم يجد الحاكم بدا من الإفراج عنه ، فعمّ السرور أنحاء العالم الإسلامى ، وأنشدت القصائد للترحيب بعودته إلى إعلاء كلمة الله وتفسير آيه الحكيم ، وتبيان الحقائق النورانية التى تحملها رسالة الإسلام ·· ولكن الحاكم عاد إلى تقييد حريته ، وإلى سجنه حينا وإلى نفيه حينا آخر إلى الإسكندرية ، حتى تولى الحكم أحد أتباعه وأصدقائه وهو الناصر قلاوون ، فأفرج عنه وأعاده إلى القاهرة ليقوم بأعماله الباهرة فى هداية الناس إلى الدين الحنيف ·· وإلى شريعته السمحاء ··

وقد كان فى مقدور ابن تيمية وقد ولىّ الحكم أحد اتباعه ، أن يسعى لديه بالانتقام ممن آذوه وحرضوا على سجنه ولكنه رفض ·· إنه رجل مؤمن أعمق الإيمان ·· والإيمان الحق يدعوه إلى العفو عند المقدرة ·· ولهذا قال أعداؤه عنه « مارأينا مثل ابن تيمية ·· حرَّضنا عليه فلم نقدر ·· وقدر علينا فصفح ودافع عنا » ··

وظل ابن تيمية على هذا النحو ·· يعلم الناس أمور دينهم ودنياهم ·· ويهبّ حاملا سيفه للدفاع عن الوطن ·· كلما تعرض لإغارة التتار عليه ، كما حدث فى عهد الناصر قلاوون ·· فقد علم الناصر أن التتار يتأهبون للإغارة على الشام ، فهبّ مع جيش المسلمين للدفاع عن أرض الشام ·· وتراجع التتار عن إغارتهم حين رأوا ما أعدّ لهم من جيش جرار ·

وظل ابن تيمية بعد ذلك مقيما فى دمشق عالما زاهدا عاملا محاربا حتى وافته المنية عام ٧٣٨ هـ ·· فذهب إلى ربه راضيا مرضيا ··

« أم الأبطال »

عندها هاجر النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وبدأت وفود القبائل تسعى إليه وتعلن إسلامها بين يديه ، كانت الوفود من قبائل بنى سليم ، من أوائل الوفود التى أسرعت تعلن إسلامها ، وتبايع الرسول الكريم على الولاء والإخلاص والوقوف بجانبه وحمايته من أذى المشركين ، وتقديم أبطالها للجهاد .. ولم يكن فى ذلك الأمر ما يثير العجب ، فقد كانت قبائل بنى سليم منتشرة فى ديار بالقرب من المدينة ، كما كان منهم خئولة النبى عليه الصلاة والسلام .. وكان الرسول من ناحيته يحبهم ويفخر بانتسابه إليهم ، على الرغم من أنه لم يكن فى حاجة إلى أن يفخر بأحد .. لأن الفخر لكل من ينتسب إلى الرسول الكريم الذى جاء للبشرية هاديا ومبشرا ونذيرا ..

وكان بنو سليم مشهورين بالنجابة والوسامة والكرم والبأس والشجاعة .. ولهذا كله كان أشراف مكة والمدينة يتسابقون لمصاهرتهم طلبا للجمال فى الذرية ، وللقوة والتحالف أمام الخطوب .. ومن ثم كان الرسول صلى الله عليه وسلم يفخر بجداته من هؤلاء القبائل ، ورغم زهده فى الفخر ، وعدم احتياجه إليه ، وقلّة تعرضه له .. وقد سمعه الكثيرون فى موقعة حنين وهو يقول مترنما « أنا ابن العواتك من سليم » ذلك لأن ثلاثا من جدّاته كانت كل منهن تُسمى عاتكة ، فجمعهن على « عواتك » والعاتكة فى لغة العرب هى الحرة العزيزة المكرمة التى يضعها زوجها من نفسه موضع الإعزاز والتكريم ..

وكان بين الوفد الذى جاء يبايع الرسول عليه الصلاة والسلام على الإسلام من بنى سليم ، امرأة ذاع صيتها ، وعرفت فى شبابها بالجمال والوسامة والبأس والكرم ..

إنها الخنساء بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، زعيم قبيلته وأميرها .. فقد كانت لبيت « الشريد » جد عمرو ، رياسة القبائل فى بنى سليم .. وقد ذكرت كتب التاريخ أن والدها ـ لمكانته العالية فى القبائل ـ بين الرجال السبعة الذين أوفدهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة إلى كسرى ملك الفرس ، ليعتز بهم أمامه .. ويطلعه على نماذج رائعة من رجالات العرب .. ويثبت له ، بهم ، على ما وصل إليه عرب الجزيرة من رجاحة العقل ، وكريم الطباع ، ونبيل الأخلاق ، وفصاحة اللسان .. وقد ظل بيت الشريد ، جد الخنساء ، على زعامته لقبائل بنى سليم قرونا عديدة ، حتى بعد أن تفرقوا فى كل مكان مع الفتوح الإسلامية .. وحتى بعد أن استقر جانب منهم فى تونس الخضراء .. وقد عاصر ابن خلدون بعضا من بطونهم هناك .. وقال فى مقدمته إن بنى الشريد فى هذا العصر ـ أى القرن الثامن الهجرى ـ من جملة بنى سليم فى إفريقية « أى تونس » ولهم شوكة وصوله ..

وقد أكرم الرسول الكريم وفادة الخنساء حين جاءت مع وفد قبيلتها تبايعه على الإسلام .. وكانت قد اكتهلت وضعف بصرها لفرط بكائها على أخيها صخر الذى عاشت ترثيه بأشعارها .. وكانت متوشحة بملابس الحداد التى نهى عنها الرسول .. إلا أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رق لها قلبه ، وأكبر وفاءها لأخيها ، فخصها بعطفه وحنانه ، واستمع إلى شعرها الباكى ، واستزادها منه وهو يحنو عليها بقوله « هيه يا خنساء » ولم يطلب منها أن تغيّر ملابسها وأسلوب حدادها ، ترفقا بها وبشيخوختها .

وكانت الخنساء فى شبابها على جانب كبير من الجمال ، على الرغم من أن أحدا من المؤرخين القدامى لم يرها وهى فى هذه السن المبكرة ، إلا أنهم أجمعوا على جمالها ، بما عرف عن أخيها صخر من جمال لم يكن له مثيل فى شباب القبائل .. وكذلك كان أخوها معاوية بن عمرو على جانب كبير من الوسامة ، إلا أن الأقوال تواترت بأنها

أقرب شبها بأخيها صخر ، وأكثر حبا له وإعجابا به وبفضائله .. وكان أخوها صخر يبادلها إعجابا بإعجاب وحبا بحب ، وهو القائل فيها فخورا بها :

وهى حصان قد كفتنى عارها

ولو هلكْتُ خرّقت خمارها

واتخذت من شعر صدارها

وهو يقصد أن أخته محصنة لا تجلب العار على أسرتها .. ولا تحتاج إلى رقابة خاصة خوفا عليها من الغواية ، لأن لها من رجاحة عقلها ما يجنّبها الوقوع فى مهالك العار ..

وكانت منذ شبابها ذات شخصية قوية تعرف كيف تفرض إرادتها ، بالحكمة والعقل والحجة القوية ـ مما جعل المحيطين بها يبالغون فى تكريمها وتقديرها والأخذ برأيها ..

وقد خطبها فى باكورة شبابها عظيم من آل بدر ، فرفضته ، ولم يذكر لنا المؤرخون أسباب رفضها ، ولكنهم ذكروا أن أباها لم يحاول أن يفرض رأيه عليها كما اعتاد أن يفعل الآباء مع البنات فى المجتمعات المتحفظة .. ولكنه ترك لها حرية اختيار شريك حياتها لما يعلمه عنها من عقل راجح .. وخلق كريم .. وعفة ووقار .

وكان لأخيها معاوية صديق من الأبطال الصناديد ، وهو من فرسان الوغى والشعر .. وهو دريد بن الصمة ، زعيم بنى جشم .. وقد تقدّم لها وهو موقن بأن طلبه مجاب لما بينه وبين أخيها معاوية من صداقة .. ويذكر المؤرخون أن دريداً هذا مرّ بها ذات يوم وهى مشغولة بأمر بعير مريض فتهدّل جانب من ثوبها وكشف بعض جمال جسمها ، وافتتن دريد بما رأى .. وعبّر عن افتتانه بهذه الأبيات :

أخناس قد هام الفؤاد بكم   وأصابه تبل من الحب

وعلى الرغم من أن الخنساء لم تكن تعلم أن دريداً رآها وهى مشغولة ببعيرها المريض .. إلا أنها رفضته حين تقدّم لخطبتها .. وهذه هى القصة :

ذهب إلى أبيها يخطبها فرحب به الوالد قائلا :

ـ مرحبا بك يا أبا قرة .. إنك لكريم لا يطعن فى حسبه ..

وسعد دريد بهذا اللقاء ، ولاسيما حين سمع والدها يردف قائلا :

ـ والسيد لا يرد عن حاجته .. ولكن ..

وخفق قلب دريد عن « لكن » هذه .. وتوترت أعصابه وهو يسمع الوالد يقول مستطردا :

ـ ولكن لابنتى هذه فى نفسها ما ليس لغيرها .. وأنا أذكرك لها ..

ودخل الوالد على ابنته الخنساء وقال لها :

ـ يا خنساء .. أتاك فارس من هوازن .. إنه سيد بنى جشم .. جاء يخطبك .. وهو من تعلمين ..

وكان دريد فى مكان يسمع ما يجرى بينَ الوالد وابنته .. وقد سمع الخنساء وهى ترد بقولها :

ـ يا أبى .. أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح « أى طوالا سدادا كالرماح » ومتزوجة شيخ بنى جشم .. هامة اليوم أو غد ..

وكانت تقصد أنه وقد طعن فى السن قد أصبح قريبا من الموت .. إن لم يكن اليوم ، فغدا .. وخرج الوالد إلى دريد وقال له متلطفا :

ـ لقد امتنعت .. ولعلها أن تجيب فيما بعد ..

وقد أثبت الوالد فى هذه العبارة انه إنسان رقيق الحاشية .. مهذّب ، يعرف كيف يكرم الضيف ، وكيف يتلطف به حين يرده عن أمله ، فلا يقطع له الأمل دفعة واحدة ، وإنما يترك له فيه بابا مواربا ..

ولما حاول أخوها معاوية ـ إكراما لصديقه ـ أن يكرهها على الزواج به ، ازدادت إصرارا فى الرفض .. وأرسلت هذه الأشعار :

لئــن لم أوت من نفسى نصببا
لقــد أودى الزمــان إذن بصخر
أتكرهنــى ـ هبلــت ـ على دريد
وقــد أطــردت سيد آل بدر

وكان لها ما أرادت ، فتزوجت من بنى عمومتها .. فكان زوجها الأول رواحة بن عبدالعزيز .. فلما قضى نحبه ، تزوّجها عبدالله بن عبدالعزيز ، فأنجبت له ابنه عبدالله « ويكنى بأبى شجرة » .. وكان زوجها الثالث والأخير مرداس بن أبى عامر وكل أولاده منها ـ أى لم يكن له أولاد من غيرها ـ وكانوا : العباس ويزيد وحزن وعمرو وسراقة والابنة عمرة .. وقد بلغوا جميعا منازل عالية فى الشعر والفروسية والجهاد ...

وقد أجمعت أقوال المؤرخين على أنها كانت زوجة ممتازة ، وربة بيت رائعة .. وسيدة مجتمع من الطراز الأول .. تجالس الرجال وتبادلهم الحديث والشعر ، فى أدب ووقار وترفع ، وكانت صبورا على زوجها الأخير مرداس الذى ابتلى بداء الميسر .. مما ضاعف عليها عبء تدبير معاشها ومعاش أولادها منه .. فهى تريد أن تجعل من هؤلاء الأولاد منارات من العلم والبطولة والبيان بين العرب .. وقد نجحت فى ذلك إلى حد كبير على الرغم من الظروف العسيرة التى مرّت بها .. فقد كان زوجها ، كلما أفلس ـ هدّدها بالسفر فى طلب الرزق .. ولكنها تشير عليه بالبقاء حتى لا يحرم أولاده من رعايته .. وتلجأ إلى أخيها صخر ، فيقاسمها ما لديه من مال .. بل كان يعطيها أفضل البعير والأغنام من النصفين .. فلا عجب أن عاشت تبكيه بأشعارها بعد وفاته ، وترتدى الحداد عليه حتى آخر عمرها ..

وقد حسن إسلام الخنساء ، وحجّت فى خلافة عمر .. وكانت قد فقدت نظرها من فرط بكائها على أخيها صخر .. وأقبلوا بها على عمر ليعظها ويهدىء من أحزانها ، فلما كانوا بين يديه قالوا له :

ـ هذه هى الخنساء التى لم تزل تبكى على أبيها وأخويها فى الجاهلية حتى ذهب بصرها ، وأدركت الإسلام وقد قرّحت مآقيها ..

ونظر عمر إليها فى رثاء وقال :

ـ ما أقرح مآقى عينيك يا خنساء ..

فردت قائلة :

ـ بكائى على السادات من مضر ..

فهز عمر رأسه وقال :

ـ يا خنساء .. إنهم فى النار ..

فردت بهذه الاجابة المفحمة :

ـ ذلك أحرى بعويلى عليهم .. كنت أبكى لهم من الثأر .. والآن أبكى لهم من النار .

وفى رواية أخرى قيل إنه حاول أن يعظها وأن يخفف عنها .. ولكنها راحت تسكب أمامه أحزانها شعرا ، فيئس منها وانصرف عنها بعد أن قال لها :

ـ لا ألومك فى البكاء عليهم ..

ثم التفت إلى بنى عمها وأردف قائلا :

ـ خلّوا سبيل عجوزكم ، لا أبا لكم ، فكل امرىء يبكى شجونه .

وما وصل إلينا من شعر الخنساء ـ ومعظمه فى رثاء أخيها صخر ـ ينم على أنها من شعراء العرب الكبار الذين تزهو بهم الجزيرة العربية على مرّ الأجيال والأحقاب وليس أدل على مكانتها بين شعراء العرب الأشاوس من أن النابغة الذبيانى الذى كان حكما بين شعراء عصره .. أقر لها بأنها أشعر بنات جنسها فى ذلك الحين .. ولكنها فى أحد المواسم الشعرية التى كانت تنعقد فى ذلك الوقت كل عام ، حكم لها بأنها أشعر الجميع فى ذلك الموسم ، رجالا ونساء ..

ونأتى إلى أعظم مرحلة فى حياتها .. مرحلة التضحية والفداء .. فالمعروف بداهة أن

الأمومة أقوى عاطفة بشرية .. أقوى من الأخوة ومن البنوة ومن كل عاطفة أخرى .. إنه يهون على الأم أية كارثة ، مهما عظمت ، إلا أن ترى ابناً لها يموت ، ومع قوة هذه العاطفة فى الخنساء ، وفى غيرها من الأمهات ، فقد خرجت مع جيوش المسلمين فى القادسية ، ودفعت أمامها كل من بقى من أبنائها ، وكانوا أربعة .. للخروج دفاعا عن الإسلام ، وإعلاء لكلمة الله فى الأرض ..

خرجت الخنساء لتكون وراء أبنائها الأربعة تسجعهم وتحمهم وترجز لهم فى الشعر فتزيد من حماسهم للقتال ·· وفى أول الليل من المعركة ، أخذت تذكرهم بأنسابهم وأحسابهم وبسجاعة قومهم فى قتال الأعداء ، وبما أعد الله للشهداء من نعيم مقيم ، وبما يوجبه الايمان بالله وبرسوله من فداء فى سبيل الله ورسوله ·

وحين بدأت المعركة صباحا ، كان أبناؤها الأربعة فى الصفوف الأولى ، يقاتلون بشجاعة أصبحت مضرب الأمثال .. وكلما قتل واحد منهم ، اندفع الباقون فى مزيد من الحماس ، حتى استشهدوا جميعا .. أبطالا فى الدنيا ، وشهداء فى الآخرة ·

ولما علمت الخنساء باستشهادهم ، لم تزد على قولها :

« الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم .. وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » ·

وهكذا استحقت الخنساء لقب « أم الأبطال » بعد أن كانت تسمى « بكّاءة العرب » لكثرة ما بكت على أخيها صخر .. إلا أن نور الإسلام حين دخل قلبها جعلها تقدّم أعز ما لديها .. بل ما هو أعز من النفس والروح .. وهو الولد .. ولم يكن ما قدّمته إبناً أو اثنين .. وإنما أربعة أبناء أبطال ـ لم يترددوا لحظة فى تقديم أرواحهم فى سبيل الله .. وإرضاء للأم ··

« الأخت المجاهدة »

إنها فاطمة بنت الخطاب ••

إنها أخت الخليفة المعظم عمر بن الخطاب ••

وإنها زوجة المسلم المؤمن المجاهد سعيد بن زيد بن عمرو •• وابنة عمته ••

وإنها أول امرأة آمنت بالرسول عليه الصلاة والسلام من خارج أهل بيته ••

وإنها ثانى امرأة تدخل الإسلام بعد السيدة خديجة زوج الرسول ، رضوان الله عليها ••

فى الوقت الذى كانت الرسالة المحمدية تهزّ أركان الجزيرة العربية •• وتثير فى قلوب سادتها الخوف على مراكزهم ومناصبهم وزعاماتهم ••

وفى الوقت الذى كان عامة الناس يتبادلون النظرات والهمسات عن هذا الدين الجديد الذى جاء به محمد ﷺ •• والذى يسخر من آلهتهم وأصنامهم وأحجارهم ويأمرهم بتركها والكفر بها بعد أن ظلت موضع العبادة من آبائهم وأجدادهم أحقابا وأجيالا ••

وفى الوقت الذى كان المسلمون الأوائل يستخْفُون ، ويتعبدون ويتلون القرآن سرا وخوفا من بطش السادة من الكفار والمكذبين ••

وفى الوقت الذى كان فيه المستضعفون فى الأرض يشعرون أنهم أمام عالم جديد •• يسوّى بين الناس أمام الله •• ولا يجعل مقياس الفضل بين الناس إلا الصلاح والتقوى والعمل الصالح •• فى هذا الوقت المبكر من بداية الرسالة الإسلامية •• هبط الايمان على قلب فاطمة بنت الخطاب ، فإذا هى تسلم لله

وللرسول •• وإذا هى أول سيدة من قريش تدخل الدين الجديد •• وثانى سيدة تعلن إسلامها ـ بين المسلمين ـ بعد السيدة خديجة رضى الله عنها ••

ولم تخف فاطمة ولم تفزع أو تتراجع وهى ترى مايصيب المسلمين من أذى الكفار وطغيانهم حتى أصبحوا يذهبون إلى الرسول الكريم متسللين نحو دار الأرقم بن الأرقم خوفا من بطش الكفار وأذاهم ••

أسلمت فاطمة بنت الخطاب فى الوقت الذى كان أخوها عمر فى جاهليته ، قويا ، باطشا ، لايرحم إنسانا أيّا كان يسفّه آلهتهم وأوثانهم •• ويخرج على عبادة آبائهم وأجدادهم ••

ولقوة إيمانها وحسن إسلامها ، أسلم معها زوجها ، وابن عمها ، سعيد بن زيد بن عمرو ••

أسلمت فاطمة وزوجها وهما يعلمان تماما ماذا سيجرى عليهما من بطش وتعذيب إذا عرف سادة الكفار بأمرهما ••

كانا يعلمان أن عُمر ، على قوته ومهابته لن يدافع عنهما ، ولن يمنع عنهما ما قد يلقيان من تعذيب ، بل كان الأرجح أن يكون هو البادىء بالبطش والتعذيب ••

وكانا يعرفان أن عمر بن الخطاب اعتاد أن يخرج شاهرا سيفه باحثا عن الذين آمنوا بهذه الدعوة الجديدة ، وسفهّوا آلهتهم ، ليعاقبهم ويحاول ردّهم ، أو يقتلهم •• وكان المسلمون إذا رأوا عمر على هذا النحو من الثورة والاهتياج •• تفرقوا وتجنّبوه ، وابتعدوا عن إثارته ، لأن الأمر بالقتال والدفاع عن النفس لم يكن قد نزل على الرسول الكريم بعد ••

وخرج عمر ذات ليلة شاهرا سيفه بعد أن ضاق بما أسماه « الفتنة » المنتشرة بين القبائل ، فقرر أن يضع حدا لها بقتل الرسول الكريم ﷺ ••

واندفع هنا وهناك •• وسأل أين هذا الرسول الذى جعل الناس « تصبأ » ـ أى تخرج عن دين آبائهم وأجدادهم •• وانتشر الخبر بأن عمر بن الخطاب خرج فى ليلته

وقد أقسم ألاّ يعود إلى داره حتى يضع حدا لهذا الأمر ..

والتقى به رجل من بنى زهرة .. فقال له وهو يعرف أمره :

ـ أين تعمد ياعمر .. ؟

وقال عمر بحدة وحزم :

ـ أريد أن أقتل محمدا ..

وهز الرجل رأسه وقال محذرا :

ـ وكيف تأمن على نفسك من بنى هاشم وبنى زهرة وقد قتلت محمدا .. ؟

فأمسك به عمر وشده بعنف وهنف به :

ـ ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك الذى أنت عليه ..

وتخلص الرجل من قبضة عمر وواجهه بشجاعة قائلا ..

ـ وما شأنك أنت ..

وعاد عمر فأمسك بتلابيب الرجل ورفع سيفه ليبطش به .. وأدرك الرجل أن عمر فى حالة لايفيد فيها التحدّى ، فصاح به قائلا :

ـ على رسلك ياعمر .. أتريد أن تصلح الكون .. أليس الأولى أن تصلح نفسك وأهلك ..

واشتدت ثورة عمر .. وهمّ أن يبطش بالرجل .. إلا أنه أراد أن يستوثق مما قال .. وأن يعرف من الذى صبأ من أهله .. فقال وهو يهزه بقوة :

ـ وماذا ترى فىّ وفى أهلى .. ؟

وقال الرجل لينجو بنفسه بعد أن رأى الموت أمامه :

ـ أطلقنى ياعمر .. ولا تقتلنى حتى أخبرك ..

فخفف عمر قبضته عن الرجل .. وراح يهزه بشدة وقد تطاير الشرر من عينيه لفرط الغضب واللهفة على معرفة الذين صبأوا من أهله .. وقال وهو يهدر :

ـ تكلم .. تكلم .. أو أقتلك ..

ـ ياللعجب ياعمر ·· ألا تعلم أن أختك وزوجها قد صبآ وتركا دينك الذى أنت عليه ··

ثم ابتسم الرجل فى سخرية وأردف قائلا :

ـ وهما أقرب الناس إليك ··

ـ أختى فاطمة ·· ؟

ـ وزوجها سعيد بن زيد ··

ودفع عمر بالرجل بعيدا عنه ·· واستدار متجها إلى بيت أخته :

إن الغضب يجعل العروق فى وجه عمر تنفر بشدة ·· وإن الشرر يكاد يتطاير من عينيه ·· وإن السيف لمشرع فى يده ·· وإن الانفعال النفسى ليكاد يهزه هزا ·· وإن الأفكار لتدور فى رأسه كالدوامة ·· إذ كيف ينهى الناس عن الدين الجديد وأخته وزوجها ـ وهو ابن عمه أيضا ـ قد دخلا فيه ··؟

بأى وجه يستطيع أن يذهب إلى الكعبة مرفوع الرأس ليرى زملاءه ، من السادة يتهامسون ويتغامزون عليه دون أن يجرأوا على مصارحته ··

وكيف تجرؤ فاطمة على هذا الأمر وهى تعلم موقف أخيها منه ··

إلى هذا الحد يكون أثر هذا الدين الجديد على الناس ··

ومضى عمر يضرب الأرض بنعليه نحو بيت أخته وهذه الأفكار تدور فى ذهنه كالدوامة ·· فتزيده غضبا وتزيده رغبة فى البطش ··

وسمع وقع أقدامه من بعيد المهاجر خباب ··

وكان خباب عند فاطمة وزوجها يُقرئهما سورة « طه » والجميع يتذاكرون كلام الله ، إلا أن خباباً بسمعه المرهف ، عرف أن عمر يقترب من البيت بخطوات تنم عن الغضب والثورة ··

وأسرع خباب يتوارى فى جانب من البيت ·· وقد استحوذ عليه الرعب من عمر ··

ودخل عمر مندفعا يريد أن يبطش بأخته وزوجها ·· وأراد أن يجد التبرير لهذا فقال وهو يتلفت حوله :

ـ ماهذه الهينمة التى سمعتها عندكم ··

فقال سعيد مرتعدا :

ـ ماهو إلا حديث تحدّثناه بيننا ··

وهز عمر رأسه وقال متوعدا :

ـ فلعلكما قد صبأتما ··

وهنا تنازعت فاطمة رغبتان ·· إما أن تكذبه ·· وهى المؤمنة الصالحة المجاهدة التى لا تقبل على نفسها أن تنكر دينها ولو انتهى الأمر باستشهادها ·· أو أن تصدقه القول ، وليكن بعد ذلك مايريد رب العالمين ··

وقبل أن تتحدث فاطمة ، أسرع سعيد يقول ليحميها من بطش أخيها :

ـ أرأيت ياعمر إن كان غير الحق فى بيتك ··

ووثب عمر عليه ، واشتد فى إيذائه ، وأغلظ له القول ·· وهنا اندفعت فاطمة وقد رأت أن تحمى زوجها فى الحق ، وأن تضحى بنفسها فى سبيل دعوة الحق ، وأن تفتدى بحياتها أعظم ماوهبت له هذه الحياة ·· فدفعت أخاها عن زوجها بعنف ·· واستدار عمر إلى أخته فلطمها بغلظة حتى أدمى وجهها ·

وهنا تبرز قوة الايمان فى قلب كل من فاطمة وزوجها ·· وهنا يشعر الاثنان بأن الاستشهاد فى سبيل هذا الدين الجديد الذى يدعو إلى الحق وإلى مكارم الأخلاق ·· أفضل من الاستخفاء والتخاذل أمام هذا الجبار الباطش ·· وقالا معا :

ـ نعم أسلمنا وآمنا ونشهد أن لا إله إلا الله ·· ونشهد أن محمدا عبده ورسوله ··

وبهت عمر أمام هذه القوة الواثقة ·· وأمام هذا التحدّى الرائع ·· إن أخته الضعيفة المسنسلمة الرقيقة المستضعفة تتحول إلى إنسان ترتفع قامتها أمامه ·

وتقف ثابتة أمام جبروته لاتهابه ولا تخشاه ، وهو عمر ·· الذى ترتعد أمام غضبته فرائص الرجال ··

ويعجب عمر لهذا التحوّل العجيب فى شخصية فاطمة وزوجها ·· إنه لينظر إليهما فيرى هذا النور الذى يشع من عينيهما ، وهذه القوة التى تنثال من سمتهما ، وهذا الثبات الذى لم يره على أحد من قبل ··

إلى هذا المدى يحوّل الدين الجديد المؤمنين به ، فيجعل من ضعفهم قوة ·· ومن تخاذلهم ثباتا ، ومن استخفائهم شجاعة وتحديا ··

إن أخته وزوجها لا يتحديانه هو فقط ·· وإنما يتحديان قريشا كلها بجبروتها وسطوتها ونفوذها وحرصها على هذا النفوذ بين القبائل ··

لا شك أنه أمر عظيم هذا الذى يرتفع بالإنسان إلى مثل هذه المرتبة العليا ·· ويحوّله من ضعف إلى قوة ومن تخاذل إلى ثبات ··

لا بد له أن يرى الأمر على حقيقته ·· ولابدّ له أن يقرأ هذا الذى تقرأه أخته وزوجها حتى يصل إلى سر هذه القوة التى ترتفع بإنسانية الإنسان إلى أعلى مرتبة ··

ويقول فى هدوء وقد زال عنه الغضب وحل محله العجب :

ـ أعطونى هذا الكتاب الذى عندكم فأقرأه ··

وهنا يواجه عمر موقفا أعجب وأغرب من أخته ·· إنها تقف أمامه بنفس الثبات والقوة وتهز رأسها بمزيد من التحدّى وتقول لأخيها بنبرات قوية حاسمة :

ـ إنك نجس ·· وكتابنا لايمسّه إلا المطهّرون ··

ويرفع عمر رأسه وقد ازداد عجبا ودهشة ·· وقبل أن يرد عليها ، أسرعت تقول :

ـ فقم واغتسل أولا ··

ولا يسع عمر إلا أن يطيع رغبتها وأمرها ·· وكأنما هناك قوة عليا تسيطر على حركاته وتفكيره ، فاغتسل وتطهر ، ثم يعود ويأخذ الكتاب ويقرأ سورة « طه » حتى

إذا وصل إلى قوله سبحانه وتعالى :

« إننى أنا الله لا إله إلاّ أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى »

هتف عمر وقد امتلأ بالنور الالهى :

ـ دلونى على محمد ..

وهنا يخرج خباب من مخبئه متهللا سعيدا يقول :

ـ أبشر ياعمر .. فانى أرجو أن يكون دعاء الرسول ﷺ لك فى ليلة الخميس حين دعا ربه قائلا « اللهم أعزّ الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بعمرو بن هشام » .. أسرع ياعمر حتى تفوز بدعاء الرسول » ..

ـ وأين هو ياخباب .. ؟

فى الدار التى فى أصل الصفا دار الأرقم بن أبى الأرقم ..

وانطلق عمر .. وأسلم .. وكلنا نعرف كيف أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب الذى كان مثالا يحتذى فى التواضع والحلم .. وفى التقوى .. وفى القوة للحق .. وفى توطيد أسباب العدالة .. وفى تثبيت أعظم أصول الحكم ..

وكانت الأخت المجاهدة فاطمة ، هى السبب المباسر فى دخول أخيها العظيم فى دين الله الحنيف ..



« قائد كتيبة الأهوال »

إنه عظيم من عظماء العرب .. وقد استمد عظمته من تواضعه وإيمانه العميق وإقباله على الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وإعزاز شأن المسلمين ، وتفانيه فى القيام بأى عمل ينفع فيه دينه وإخوانه وأمته ، والمؤمنين جميعا ٠

ورغم هذه الصفات كلها لم يسع يوما إلى الإمارة كما كان يفعل البعض من إخوانه ، وإنما كان متواضعا فى عظمته ، رقيقا فى قوته ، شاكرا لأنعم الله فى شجاعته ، يحفظ قول الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه فى شأن السعى إلى الإمارة « إنّا والله لا نولىّ هذا العمل أحدا سأله ولا أحدا حرص عليه » ٠٠

ذلك بعد أن سمع بنفسه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول هذا القول لبعض الصحابة الذين طلبوا لأنفسهم أن يؤمّروا على بعض الولايات ٠

فمن هذا الصحابى الجليل .. والعربى الأصيل .. والفارس المقدام .. والشاعر الملهم .. والبطل الصنديد والفاتح الشجاع ٠

إنه عاصم بن عمرو التميمى ..

أحد عظماء الجزيرة العربية الذين شاركوا فى نشر الرسالة الإسلامية فى العراق وفارس .. والذين وهبوا أرواحهم لأشرف رسالة سماوية عرفتها البشرية ..

يقول عنه وعن شجاعته وإقدامه أبو الحسن المسعودى فى كتابه المعروف « مروج الذهب » ما يلى بالحرف الواحد :

« ... ودارت المعركة ٠ وحمى الوطيس .. وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين يتغشاه الذهب

إنى امرؤ لا من يعفيه السبب مثل على مثلك يغريه العتب

فبرز إليه عظيم من أساورتهم « من أبطالهم » فجالا .. ثم إن الفارس ولىّ ، وأتبعه عاصم حتى لجأ إلى صفوفهم « صفوف الفرس » وعموه « ضللوه » وغاص عاصم بين صفوف الفرس « حتى أيس الناس من أنصاره » منه .. ثم خرج مجنّبات القلب .. وقدامه بغل عليه صناديق مركبية بآله حسنة « بمظهر حسن » فأتى به « أى بالبغل وما عليه » سعد بن مالك « قائد جيش العرب » .. وعلى البغل رجل عليه مقطعات « أثواب » ديباج « حرير » وقلنسوة مذهبة ، وإذا هو خباز الملك « الفارسى » وفى الصناديق لطائف الملك من الأخبصة « الحلوى » والعسل المعقود .. فلما نظر إليه سعد قال : « انطلقوا إلى أهل موقفه وقولوا إن الأمير قد نقلكم هذا فكلوه .. ففعلوا » ..

والواقع الذى يعرفه المؤرخون وقد أجمعوا عليه ، أنه كان للمجاهد عاصم بن عمرو مواقف رائعة مع كسرى ملك الفرس .. وقد بدأت هذه المواقف عندما ذهب وفد من الجيش الإسلامى إلى كسرى للتفاوض معه .. والإسلام كما يعلم جميع المؤرخين المنصفين ، لا يبدأ بالعدوان ، وإنما برسالة السلام والمفاوضة .. فإذا لم تؤدّ هذه الوسيلة الغرض المنشود .. وتعرّض رسله إلى المهانة أو العدوان ، وجب فى هذه الحالة الجهاد واستخدام القوة أمام القوة ..

وكان المجاهد المؤمن عاصم بن عمرو بين الوفد المرسل للتفاوض مع كسرى .. وقد سألهم ذلك الملك المغرور بقوته وجبروته ٠

ـ ما جاء بكم أيها الأعراب ..

فرد عليه النعمان بن مقرن رئيس الوفد قائلا :

إن الله رحمنا فأرسل إلينا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرّفنا بالشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ٠٠

وغلب على كسرى يزدجرد جبروته وغروره ، فأغلظ القول للوفد . ولم يرع للضيافة حرمة وخيّل إليه أنه جبار الأرض الذى لا يقبل حديثنا لينا أو قاسيا من أحد ٠٠ ولم يكتف بهذا ، بل تمادى فى جبروته وفى رغبته لإهانة الوفد ، فأمر جنوده

أن يأتوا بحمل ثقيل من تراب الأرض ، وطلب منهم أن يختاروا أشرف رجل فى الوفد ويرغموه على حمل هذا التراب حتى يخرج من البلد ذليلا مهانا بين أقرانه ·· وبين أهل فارس جميعا ··

وأحضر الجنود غرارة التراب .. ونظر كسرى فى سخرية وقال :

ـ من أشرفكم .. ؟

وصمت القوم جميعا تواضعا وليس خوفا .. فقد علمهم الإسلام أن التواضع زينة المؤمن .. وأن الله لا يحب كل من كان مختالا فخورا ··

وهنا أدرك عاصم حقيقة الموقف .. أدرك أن الأمر لا يتعلق بالتواضع أو الكبرياء .. وإنما بالتضحية من أجل الإخوة المؤمنين .. فإذا كان زملاؤه قد صمتوا تواضعا فإنه تقدّم بدافع الرغبة فى التضحية واحتمال الأذى ، وقال :

ـ أنا سيد هؤلاء .. فاحملوا التراب علىّ ··

وفيما كان عاصم بن عمرو يسير بين زملائه حاملا غرارة التراب .. معرّضا نفسه لسخرية أهل فارس .. كان يشعر فى قرارة نفسه أن هذا التراب الذى يحمله من أرض الأكاسرة ، إنما هو فأل حسن للمسلمين جميعا .. وأن هذا التراب الخارج إلى المسلمين رمز لاستيلاء المسلمين على تراب فارس كلها ..

وقد عبّر عاصم عن مشاعره هذه بقوله لقائد جيوش المسلمين سعد بن أبى وقاص حين عاد إليه مع رفاقه :

ـ أبشر بالظفر .. ظفرنا إن شاء الله تعالى .. أبشر .. فقد أعطانا الله مقاليد ملكهم ..

ولم يكن عاصم بن عمرو فقط الذى أدرك مغزى هذا الرمز ، وشعر بهذه الموجة من التفاؤل فى ظفر المسلمين بملك كسرى ، وإنما أدرك بعض هذا الأمير رستم ، قائد جيش الفرس ، حين بلغه ما فعله كسرى يزدجرد بوفد المسلمين .. وقد قال عن عاصم يومذاك ..

ـ إنه ليس بأحمق .. وليس هو أشرفهم .. وإنما أراد أن يفتدى قومه بنفسه .. لقد ذهبوا والله بمفاتيح ملكنا .

وسأل أحد أتباعه :

ـ متى حدث هذا ..

ـ بالأمس فقط ..

ـ إذن أرسلوا وراء عاصم ورفاقه .. فإذا أدركتموهم ، فلا تقتلوهم ، ولا تسيئوا إليهم ، وإنما استردوا منهم التراب ..

وانطلق رسل الأمير رستم وراء عاصم بن عمرو ورفاقه عسى أن يدركوهم قبل أن يجتازوا حدود البلاد .. وظل رستم ينتظر عودة رسله فى حالة عصبية بالغة وقد تحوّل ظنه إلى يقين ٠٠ إن خروج تراب فارس إلى أرض العرب ، معناه استيلاء العرب على أرض فارس ٠٠

وعاد الرسل مغبرين منسعتين يعلنون فى أسى أنهم عجزوا عن إدراك وفد المسلمين .. ويبدو أن الوفد كان مسرعا وقد أدرك أنه ، بما يحمل من تراب فارس ، قد فاز بالغنيمة الكبرى ..

ويسجل التاريخ فى أشرف وأنصع صفحاته معركة القادسية التى دارت بين جيش المسلمين بقيادة سعد بن أبى وقاص .. وجيوش الفرس بقيادة الأمير رستم فى عهد كسرى يزدجرد ـ أعظم ملوك الفرس فى ذلك الحين وأقواهم شكيمة ..

وكان عاصم بن عمرو التميمى من الذين اشتركوا فى هذه المعركة وأبلوا فيها بلاء حسنا ، وكان يوصى الجند والحرب على أشدها بقوله :

« قولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله .. ردّدوا قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ، أن الأرض يرثها عبادِيَ الصالحون) » ٠٠

ويذكر المؤرخون أن عاصم كان يحارب كأى جندى عادى ، فلا هو فى سمت القواد .. ولا فى سمت الإمارة .. وإنما مجاهد ، مسلم ، مؤمن ، لا يبتغى إلا النصر أو الشهادة ..

ومن المؤكد أن معركة القادسية هذه كانت من المعارك الحاسمة فى إعـلاء شأن الإسلام ، ونشر كلمة الله العليا بين البشر .. وقد بلغ من أهمّيتها ـ وقد وقعت فى عهد الخليفة عمر رضى الله عنه ـ انه ـ أى الخليفة ـ كان يخرج من المدينة وهو أشد ما يكون قلقا ويتجه ناحية العراق متنسما أخبار المعركة أولا بأول .. وكلما لقى بعض الركبان ، سألهم عن أخبار المعركة .. وفى ذات يوم رأى من بعيد راكبا يقتـرب .. فأسرع نحوه وسأله عن أنباء المعركة .. فقال الراكب لعمر : وهو لا يعرفه :

ـ لقد فتح الله على المسلمين فى القادسية ، وغنموا مغانم كثيرة ٠

وتنهّد الخليفة فى ارتياح وحمد الله وأثنى عليه .. ثم سار بجوار الرجل .. ماشيا على قدميه ، والرجل ممتطيا ناقته ، ويحاول أن يسأله عن المزيد من أخبار المعركة .. ودخلا على هذا النحو المدينة .. وأخذ الناس يحيّون عمر كأمير للمؤمنين .. وأسرع الرجل مترجلا وهو ينظر إلى عمر فى دهشة ، ثم يقول متوجّسا :

ـ يرحمك الله يا أمير المؤمنين ويرحمنا .. هلاّ أعلمتنى أنك الخليفة ..

وبالتواضع المعروف عن أمير المؤمنين عمر الفاروق ، قال :

ـ لا عليك يا أخى :

واشترك عاصم بن عمرو أيضا فى إحدى المعارك الإسلامية الكبرى .. وهى معركة المدائن .. بل إن عاصماً كان فى هذه المعركة يقود كتيبة من جند المسلمين ، كوّنها هو ، وقادها هو .. وأسماها « كتيبة الأهوال » ويمكن أن نقول إنها أول « كتيبة من كتائب الصاعقة أو الفرق المخصوصة » فى التاريخ كله ..

وكان الأكاسرة قد اعتادوا ان يتباروا فى بناء المدن .. فكل ملك منهم يقبم فى عهده مدينة بالقرب من المدينة التى أقامها سلفة .. وكل واحد منهم يحاول أن يجعل مدينته أجمل وأعظم عمارة وبهاء .. وهكذا اجتمعت عدة من المدن فى صعيد واحد ، وأطلق عليها « المدائن » وسميت المعركة التى دارت فيها ٠ بمعركة المدائن ..

وكان المفروض أن يعبر الجيش الإسلامى نهر دجلة فى منطقة تفيض بالماء ويشتد

موجه .. وكانت عملية العبور قاسية تحتاج إلى مجاهدين وهبوا أنفسهم لله ولإعلاء كلمة الله ٠

ففد كان النهر الهائج يفصل بينهم وبين الأعداء المتربصين .. وكان لزاما على الجيش أن يعبر إلى الأعداء ويفاجئهم فى عقر دارهم .. وكان من الضرورى أن تقوم بعملية العبور كتيبة فدائية استطلاعية تفتح الطريق أمام الجيش ، وتثبت على الجانب الآخر من النهر ما نسميه اليوم بلغة القتال « رأس حربة » وأن تظل متشبثة بهذا الرأس حتى يعبر الجيش كله ..

ونادى قائد المسلمين فى جنوده :

ـ من يبدأ العبور ..

وكان عاصم بن عمرو التميمى أول من استجاب للنداء .. وتبعه مئات آخرون ..

من هؤلاء الجنود الفدائيين تكوّنت أول كتيبة أطلق عليها عاصم بن عمرو اسم « كتيبة الأهوال » ٠

واندفع عاصم بجنود كتيبته إلى الماء ، يخوضون النهر بخيولهم ، لا يهابون الموت ٠

ونجح عاصم وكتيبته فى تثبيت رأس الحربة على الضفة الأخرى .. وبعد أهوال رهيبة ، عبر الجيش كله .. وبدأ القتال .. واشتدّ أواره ، ولاحت تباشير النصر بعد أن اطمأن الجنود إلى ثبات مواقعهم ٠٠ وإلى قدرتهم الفائقة على الفوز بعد أن تخطوا ذلك المانع المائى العنيف ٠٠ وكتب النصر للمسلمين فى معركة المدائن ٠٠ ودانت دولة الفرس للمجاهدين الذين وهبوا أرواحهم فداء لإعلاء كلمة الله ٠٠

وهكذا عاش هذا المجاهد العظيم فى إيمانه .. وفى تواضعه .. وفى إخلاصه .. وفى شجاعته .. عاش عاصم بن عمرو التميمى مثالا للإقدام ، وللوفاء ، وللجهاد .. ومات وقد حسن إسلامه .. وأصبح مضربا للأمثال فى تاريخ المعارك الإسلامية ..

« الساخر من الشيطان »

لكأنى بشيطان من شياطين مكة فى فترة ظهور الإسلام يقفل عائدا إلى قبيلته وقد استخفه الطرب والابتهاج ·· وكأنى بكل شيطان يتحدث عن إنجازاته فى يومه ذاك وقد ساد البأس نفوسهم النارية بعد أن بدأت الدعوة الإسلامية تنتشر بسرعة ·· وبعد أن أخذ العديد من الإنس المخدوعين بعبادة آلهة من الحجارة ، يثوبون إلى الطبيعة البشرية التى أودعها الله فى كل قلب منذ خلق الله آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه نبض الحياة ··

لكأنى بجماعة الشياطين تكاد تمزّق شعورها ـ إن كان لها شعور ، وتطحن على أسنانها ، إن كان لها أسنان ، وتلطم الوجوه ، إن كان لها وجوه ·· ولكأنى بكبيرهم وهو يتساءل :

ـ وما العمل وقد بدأ الأمر يفلت من أيدينا ·· حتى إن حليفنا الأكبر أبو لهب لم يعد قادرا مع أعوانه على صد هذا السيل الجارف من الدعوة المحمدية ··

ويخيّم الصمت الكئيب على رؤوسهم ·· ولكن شيطانا مختالا يقفز ويقول :

ـ لقد أنجزت اليوم عملا جبارا ·· لقد وجهت إلى هؤلاء الآبقين من عهودنا ضربة قاتلة ··

وكأنى بجمع الشياطين يلتف حول هذا الشيطان المختال ويسألونه فى لهفة :

ـ ماذا فعلت ·· تحدث ·· إننا ـ

ـ سكونا أيها الخائبون ·· سكوتا ··

وعاد الصمت الكئيب مع الترقب والأمل يخيّم على الجمبع ·· بينما أردف الشيطان المختال يقول :

ـ أتعرفون عبد الله بن سعد بن أبى سرح ··

وصاح عدد كبير :

ـ وكيف لانعرفه وقد كان أملنا فيه كبير قبل أن يخيّب هذا الأمل وينضم إلى الدعوة المحمدية وهو فى أوج الشباب ..

وقال كبير منهم :

ـ أليس هو ابن مهابة بنت صابر الأشعرى .. ؟

ـ أجل هو بعينه ..

ـ أو ليس هو الذى كان طائشا نزقا لايكف عن العبث واللهو والإقبال على معاقرة الخمر ومعاشرة النساء .. ؟

ـ إنه هو ..

ـ أو ليس هو الذى تحمّس للدعوة وهاجر إلى المدينة مع المهاجرين ، وتمادى فى حماسه للدعوة فأصبح واحدا ممن يكتبون الوحى المنزل على محمد .. ؟

ـ إنه هو بعينه .

ـ إذن ماشأنكم به وقد بلغ هذه المنزلة من الدعوة المحمدية ..

وفرك الشيطان المختال يديه وهزّ ذيله الطويل وقال .

ـ لقد بقيت وراءه أوسوس له وأذكّره بما كان يستمتع به قبل إسلامه من الحرمات المحببة إلى كل نفس بشرية .. ذكرته بمجالس القيان والخمر والعبث .. وذكرته بالحرية المطلقة الخالية من قيود هذه الدعوة ، مما تحرّمه من شهوات الدنيا ..

وقال كبير الشياطين ساخرا :

ـ وماذا فى هذا .. إننا جميعا لاعمل لنا الآن إلا هذه الوسوسة فى آذان هؤلاء الآبقين علينا ، المتحمسين للدعوة المحمدية ، ولكن بلا جدوى .. فكل مانلقاه منهم هو الاستعاذة بالله منا وبتلاوة آيات من القرآن التى تهبط علينا فتزيدنا عذابا فوق عذاب .

وفرك الشيطان المختال يديه مرة أخرى وقال وقد ازداد اختيالا :

ـ ولكننى نجحت مع عبد الله بن سعد ..

وهتف الجميع :

ـ نجحت معه ..

ـ نعم .. وردته عن الإسلام ..

وصاح كبيرهم :

ـ يابشرى .. إذا كنت قد نجحت مع واحد منهم .. فهذا يعنى أن الأمل موجود فى النجاح مع غيره .. وغيره .: ولكن كيف ..

ـ لقد جعلته يحن إلى أيام اللهو والعبث ومتاع الدنيا ، فراح يكذب على محمد ويقول إنه ـ أى محمد ـ كان يُـمْليه « عزيز حكيم » فيقول له عبد الله « أو عليم حكيم » فيقول له محمد « كل صواب » .. وذلك حتى يتشكك الناس فى صدق الوحى ..

وهتف بعض الشياطين :

ـ وأين هو الآن ..

ـ لحق بقومه بعد أن أهدر محمد دمه بين القبائل ..

وصاح كبير الشياطين ابتهاجا :

ـ هلموا انتهزوا هذه الفرصة وتفرقوا بين شباب الدعوة ، واتخذوا من عبد الله بن سعد مثلا يحتذيه هؤلاء الشبان .. فهذا هو أول القطر ..

وتفرق الشياطين .. وقد بدأ الأمل يراودهم فى القضاء على الدعوة المحمدية ..

*

* *

ولكن الله سبحانه كان قد سبق فى علمه أن تأخذ دعوة الحق والسلام والإيمان والنور طريقها ـ مهما حفّت به الأخطار والمشاق ـ وأن يعود الرسول ﷺ إلى مكة

التى خرج منها مهاجرا خائفا ·· يعـود منتصرا ·· هاتفـا : جاء الحـق وزهـق الباطل ··

ويترك عبد الله بن سعد بن أبى سرح الخطأ الأكبر الذى وقع فيه ·· ولا يدرى ماذا يفعل لكى يصلح هذا الخطأ ·· إن الرسول قد أهدر دمه ·· وإن جنود الإسلام قد انتشروا فى مكة مهللين مكبرين ·· ولم يعد هناك مجال للهرب ·· ولم تعد لديه القدرة على السعى إلى الرسول الكريم التماسا للمغفرة ·· فقد كان لديه بقية من حياء وتأنيب للضمير ··

ولكنه يتذكر أن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ أخوه فى الرضاع ·· فلماذا لايلجأ إليه ويلتمس شفاعته عند الرسول ··

ويقبل عثمان أن يتشفع له بعد أن أيقن من صدق توبته ·· ومن شدة ندمه على كل مافعل ··

وحاول الشيطان المختال أن يغريه بالهرب ·· أن يدفعه إلى التمادى فى الردّة ·· ولكن عبد الله عرف كيف يسخر منه ، وأن يدفعـه عنـه ، وأن يسـتعيذ بالله من وساوسه ·

وعاد الشيطان المختال إلى قومه يجر أذيال الخيبة ·· وقال له كبيرهم ·

ـ ها قد سخر عبد الله منك أخيرا ·· وعاد إلى قومه المؤمنين بالدعوة المحمدية ·

وحاول الشيطان المختال أن يتشبث ببصيص من الأمل فقال :

ـ ولكنه لايسعى إلى لقاء محمد منذ أن عفا عنه أمام عثمان بن عفان ··

وقال كبيرهم :

ـ لأنه يشعر بالخجل مما فعل ··

*

* *

وتلك كانت الحقيقة ·· فبعد أن عفا الرسول الكريم عن عبد الله بن سعد ، ظل

عبد الله فترة وهو يتعذب بالندم والألم ‥ ولا يكاد يجد الشجاعة للسعى إلى الرسول الكريم ومجالسه ‥ ولكن الآيات القرآنية تنزل وحيا على الرسول ‥ وإذا هو يسمع أن الله يغفر الذنوب جميعا للتائب الذى تصدق توبته ، وأن الإسلام يجُبّ ماقبله كما قال الرسول الكريم ‥ وإذا عبد الله بن سعد يعود إلى مجلسه عند الرسول الكريم ، يسمع منه ويسترد ثقته ، وقد آمن بأن الله قد عفا عنه ‥ فازداد إقبالا وحماسا على الدعوة الإسلامية ‥

وقد ظل عبد الله موضع ثقة الرسول بعد أن حسن إسلامه أى بعد أن أمعن فى سخريته من وساوس الشيطان ‥ وبعد أن قضى الرسول الكريم ‥ ظل موضع الثقة من أبى بكر رضى الله عنه ‥ ومن عمر بن الخطاب أرضاه الله ‥ ولما كان فارسا صنديدا يجيد القتال جهادا فى سبيل إعلاء كلمة الله ‥ فقد ولاه عمر إمارة الميمنة من جيش عمرو بن العاص الزاحف إلى مصر لانقاذها من طغيان الرومان واستبدادهم ‥ ويجمع المؤرخون أنه أبلى بلاء حسنا أهّله لأن يكون واليا على مصر فى عهد عثمان بن عفان بعد ولاية عمرو بن العاص ، رضى الله عن الجميع ‥

وتذكر كتب التاريخ أن الخليفة عثمان بن عفان ـ جهز لعبد الله بن سعد جيشا هائلا جعل فيه عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير ، قالوا عن هذا الجيش ، إنه جيش « العبادلة » ‥ وقد دارت المعركة الحاسمة ضد الروم ‥‥ جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد ، وجيش الروم بقيادة جارجير ، وانتصر جيش النور والحق والسلام ‥ ودخل فى دين الله الألوف بعد الألوف من سكان أفريقيا ‥ كما كان عبد الله بن سعد على رأس الجيش الذى فتح قبرص ، مشتركا فى هذه المعركة مع جيوش إسلامية أخرى جاءت من الشام ‥

وظل عبد الله فى جهاده ‥ فنشر كلمة الله فى مناطق شاسعة من أفريقيا ، ووصل بجيشه إلى النوبة فى جنوبى مصر ‥ وكلما حاولت الشياطين أن توسوس لبعض القبائل الأفريقية بالردة عن الإسلام ‥ أعادها عبد الله إلى الطريق المستقيم ،

ساخرا من وسوسات الشياطين ، فارضاً على هؤلاء المرتدين الجزية ..

وخاض عبد الله بن سعد أعظم معركة فى حياته .. بل ربما فى التاريخ البحرى فى ذلك الحين .. وذلك فى المعركة المسماه « معركة الصوارى » .. وهى المعركة التى حشد لها قسطنطين بن هرقل .. ملك الروم .. جيشا هائلا وضعه فى خمسمائة سفينة ليغزو بها مصر عن طريق الإسكندرية .. وجاءت الأنباء بأمر هذا الجيش إلى عبد الله بن سعد ، فلم يفزع ، ولم يتراجع .. وإنما أخذ يردد قول الله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .. والله مع الصابرين » .. وانتصر عبد الله بجيشه القليل العدد ، الكثير بالإيمان وبالشجاعة .. وبالصبر والصلاة .. وكان نصرا مؤزّرا خالدا فى تاريخ المعارك العسكرية العظيمة ..

ولما وقعت الفتنة فى عهد عثمان بن عفان ، اعتزل عبد الله الحكم ، ورفض أن ينحاز فيها لأحد الطرفين ، وخرج إلى الشام .. وفى ذات صباح دعا الله أن يكوّن آخر عمله فى الدنيا أداء فريضة الصلاة .. واستجاب الله لدعائه فما كاد أن يفرغ من صلاة الصبح حتى فاضت روحه إلى بارئها ..



« المهاجرة الصابرة »

كان أبو سلمة قد ضاق بما يفعله المشركون بالمؤمنين فى مكة قبل أن يأذن الله للمؤمنين بالقتال .. وفى ذات يوم قرر أن يخرج مهاجرا بزوجه أم سلمة وابنهما سلمة ، لم يزل طفلا .. فأعد للرحيل بعيرًا ، وخرج فى اليوم المحدد مستخفيا وهو يأمل ألا يراه بنو المغيرة ، قوم زوجته ..

وسار الرجل المؤمن يقود البعير ، والزوجة والابن فوقه .. يتلفّت حوله ، خشية أن يراه أحد من بنى المغيرة فيحول بينه وبين إتمام السير والهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .. ولما أصبح بظاهر مكة .. تنهّد فى ارتياح وقد أحسّ أنه نجا .. ولكنه لم يلبث أن رأى من بعيد عددا من الفرسان يهرعون نحوه .. وأسقط فى يده .. ولم يسعه إلا أن يتوقف وأن ينتظر ما سيجرى له ، محتسبا أمره لله ..

وتحلّقوا حوله وقد أربدت وجوههم غضبا ، وصاح أحدهم :

ـ إلى أين يا أبا سلمة .. ؟

ـ إلى الله ورسوله ..

وردّ آخر :

ـ وهذه التى معك .. ؟

إنها امرأتى .. وهذا ولدى ..

وقال ثالث :

ـ يا أبا سلمة .. هذه نفسك غلبتنا عليها .. وخرجت عن دين آبائك وأجدادك ، وسفّهت آلهتنا ، ولا حاجة لنا بك ..

وبرقت أسارير أبى سلمة أملا .. ولكن المتحدث أردف قائلا :

ـ إنك أهون علينا من أن نأخذك .. فأنت لك قومك يفعلون بك ما يرون .. أما

صاحبتنا هذه .. فعلام نتركك تسير بها فى البلاد .. ؟

وهتف أبو سلمة مستنكرا :

ـ إنها امرأتى .. وهى راضية بما أفعل ..

ـ إنها لم تعد الآن امرأتك .. إن شئت أن تبقى معها هنا .. أو أن تذهب إلى حال سبيلك وتردّها إلينا ..

ـ وهنا قالت أم سلمة :

ـ ولكننى اخترت الله ورسوله ..

فرد واحد من قومها :

ـ ليس لك أن تختارى ونحن قومك نرى فيك رأينا ..

وهنا بدت فى الأفق زوبة غبار كشفت عن فرسان مسرعين نحو الجمع .. وانجلى الأمر عن جماعة من قوم بنى أسد ، رهط أبى سلمة ، فترجلوا وقال واحد منهم :

ماذا بكم يا قوم .. ؟

وقال واحد من بنى المغيرة :

ـ لقد صبأ ابنكم ويريد أن يأخذ معه ابنتنا ..

ورد واحد من بنى أسد :

ـ هذه ابنتكم افعلوا بها ما شئتم .. أما ابنهما سلمة فهو لنا ..

وعبثا حاولت أم سلمة أن تقاوم .. فقد انتزعها قومها بنو المغيرة من فوق البعير ، وحالوا بينها وبين زوجها وابنها .. وقال بنو أسد لأبى سلمة ..

ـ إن شئت بقيت معنا ..

ـ لا أبقى إلا مع الله ورسوله ..

ـ إذن فخلّ بينك وبين سلمة .. فهو حفيدنا ولا نتركه لك ، يصبأ مثلك ..

وقال واحد من بنى المغيرة معاندا :

ـ بل هو سبطنا ولنا فيه أكثر مما لكم ..

وتنازعوا الطفل بينهم حتى خلعوا يده ، وظفر به بنو أسد .. رهط أبيه ، وانطلقوا به بعيدا ..

وقالت أم سلمة لزوجها :

ـ اذهب أنت يا أبا سلمة إلى الله ورسوله .. فوالله إنها لأحقّ بك مني .. وما علينا إلا الصبر .. والله مع الصابرين ..

وانطلق بنو المغيرة بابنتهم ، أم سلمة .. وهي بنت أبي أمية بن المغيرة القرسية المخزومية ..

ولكن أم سلمة لم يجف لها دمع ، ولم تهدأ لها نفس ، وإنما ظلت تبكي الزوج والولد .. وكانت تخرج في كل غداة ، وتجلس في مكان يسمى الأبطح ، وهو الآن موضع رمي الجمار بمنى .. وترنو في اتجاه المدينة ، وتبكي ما شاء الله لها من بكاء ، حتى تقرّحت الجفون ، وهزل الجسد .. وغاضت الوجنات ، وشحب الوجه ..

وكانت تبتهل إلى الله في سجنها .. وفي عزلتها .. وفي صلاتها أن يجمعها بالابن وبالزوج في ظل الإسلام ونبيّ الاسلام .. ولم تفقد يوما الأمل في أن الله سبحانه سوف يستجيب لها الدعاء •

ومرّ بها رجل من بني عمها ، فراعه ما غدت عليه من ذبول ونحول وشحوب .. فقال لها :

ـ ما بك يا أم سلمة ..

ـ فراق الزوج والولد ..

ـ وما فرّق بينك وبينهما .. ؟

ـ قومي ..

ـ أأسلمت يا أم سلمة ..

نعم .. وإني والله ما أرجع عن ديني أبدا .. بعد أن هداني الله ..

ـ قد تموتين إذا استمر بك الحال هكذا ..

ـ الموت فى سبيل الله خير من حياة مع قوم مشركين ..

وهزّ ابن العم رأسه عجبا لهذا الايمان العميق الذى يجعل هذه الزوجة والأم تصبر على فراق أحب الناس إليها ، وعلى ما تلقاه من سجن وتعذيب ..

وذهب إلى قومها وقال لهم :

ـ ألا تخرجون هذه المسكينة .. وكفاها أن فرقتم بينها وبين زوجها وابنها ..

وكان قومها قد يئسوا من أمرها .. وخشوا أن تموت بين أيديهم فيحملوا وزر دمائها ، ومن ثم قالوا لها :

ـ الحقى بزوجك إن شئت ..

وأسرعت أم سلمة وقد استمدت من ضعفها قوة إلى قوم زوجها بنى أسد ، وقالت لهم :

ـ لقد أخلى قومى سبيلى ، وإنى لذاهبة إلى زوجى ..

فقال أحدهم :

هذا شأنك ..

ولكن ابنى معكم .. ردّوه علىّ

وتشاور القوم .. وقرروا أن يردّوا عليها ابنها .. وأعاروها بعيرا ، وتركوها ترحل وابنها فى حجرها .. وليس معها أحد من خلق الله ..

وتقول أم سلمة عن هذه الرحلة الشاقة :

ـ فلما كنت بالتنعيم « مكان بالقرب من الحرم بمكة » لقيت عثمان بن طلحة أخا بنى عبدالدار ، فقال :

ـ أين يا بنت أبى أمية .. ؟

فقلت :

ـ أريد زوجى بالمدينة ..

فقال :

ـ هل معك أحد .. ؟

فقلت :

ـ لا والله .. إلا الله وابنى هذا ..

فرد قائلا :

ـ والله مالك من مترك ..

فأخذ بخطام « قياد » البعير ، وانطلق معى يقودنى ..

وتستطرد أم سلمة فى حديثها عن رحلتها فتقول :

« فوالله ما صحبت رجلا من العرب أراه كان أكرم منه .. إذا نزل المنزل .. أناخ بى .. ثم تنحّى إلى شجرة فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح ، قام إلى بعيرى فقدّمه ورحّله ثم استأخر عنه وقال لى :

ـ اركبى يا أم سلمة يا بنت أبى أمية ..

فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقادنى حتى نزلت .. فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى إلى المدينة .. فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بموضع قباء ، قال :

ـ إن زوجك فى هذه القرية ..

وقد لقيت زوجى نازلا بها ..

ولكن أم سلمة لم تتحدث إلا عن شهامة عثمان بن طلحة وموقفه الكريم منها ، وكأنما أبى عليها تواضعها وإيمانها أن تتحدث عن قسوة الرحلة فى الصحراء الواسعة بين مكة والمدينة .. وما كانت تلقاه من هجير النهار وبرد الليل ، وابنها الطفل بين يديها ..

ولكن لا عجب إذا لم تتحدث عن رحلتها هذه كثيرا وقد كانت أول امرأة تهاجر إلى الحبشة مع المسلمين الأوائل .. وربما أول امرأة تصل إلى المدينة فى هودج ..

وهكذا كان الإسلام يسوى بين الرجل والمرأة فى قوة الإيمان ، والصبر على الشدائد ، والاستهانة بكل شىء فى سبيل الله ورسوله .

« أمن الجنّة تفرّون »

كان من أوائل الشبان الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذين صبروا على أذى قريش واضطهاد الكفار لهم والتربص بهم .. ولما أمر الرسول أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، هاجر هو مع الفوج الثانى ..

وكان يكنى « أبا العاص » .. ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام .. لفرط حبه له واعتزازه به .. غيرّ هذه الكنية وسمّاه « أبا مطيع » ·

إنه هشام بن العاص بن وائل بن هاشم القرشى .. أخو عمرو بن العاص من الأب .. أما أمه .. فهى حرملة بنت هشام بن المغيرة ..

وقد دخل فى الإسلام قبل أخيه عمرو .. على الرغم من أنه أصغر منه سنا ..

وكان عمرو بن العاص يقول عنه دائما : « أسلم قبلى .. واستشهد وبقيت .. » ·

وهذا يعنى بوضوح أن عمرواً كان يرى أن أخاه الأصغر أفضل منه .. لأنه أسلم قبله ، واستشهد قبله أيضا ..

وعاد من الحبشة إلى مكة ، بعد أن علم بهجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة .. وقرر أن يلحق بالرسول ، ولكنه كان يعلم أن المشركين كانوا يتربّصون بهم ، ويمنعوهم من اللّحاق بالرسول فى المدينة حتى لا يكثر عددهم وتقوى شوكتهم .. وكان هشام ملهوفا إلى الوقوف بجانب حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فراح يلتمس السبيل للهرب إلى المدينة ، ومن ثمّ اتفق مع عمر بن الخطاب وعياش بن أبى ربيعة رضى الله عنهما للهجرة معا .. وتواعدوا على اللقاء سرا عند اضاءة ـ أى غدير ـ بنى غفار على مسافة أميال قليلة خارج مكة ··

وفى الوقت المحدد .. شرع هشام في تنفيذ المخطط .. ولكنه ما إن سار فى الطريق إلى مكان اللقاء ، حتى فطن أهله بأمره .. فلحقوا به وأمسكوه .. وكذلك فعل أهل عياش بن أبى ربيعة .. وأودعوهما السجن بمكة .. ليأمنوا هجرتهما .. أما عمر بن الخطاب .. فقد استطاع أن يهاجر فى تلك الليلة .. وينجو من لحاق المشركين به ٠

وظل هشام فى سجن مكة بضع سنين يلقى من ألوان العذاب ما يهدّ الجبال .. ولكنه صبر وتجلّد وقاوم وهو يؤمن بأن فرج الله قريب .. وكان الرسول كلما جاءته أنباء هذا العذاب الذى يصبّه المشركون على سجناء المسلمين .. دعا ربه فى قنوت الصلاة ، والمصلون من ورائه يرددون :

« اللّهم أنج الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين » ..

واستجاب الله لرسوله .. فنجا عدد كبير من سجناء المسلمين فى مكة .. ولما طال السجن بهشام بن العاص .. وعياش بن أبى ربيعة .. قال الرسول عليه الصلاة والسلام لأصحابه :

ـ من لى بعياس بن أبى ربيعة وهشام بن العاص ..

وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة ، قد نجا من سجنه ولحق بالرسول الكريم فى المدينة .. فلما سمع هذا القول ، وثب واقفا وقد انتضى سيفه وقال :

ـ أنا لك يا رسول الله ..

ووضع الوليد خطة لإنقاذهما .. فتنكر فى ملابس وسمت غير ملابسه وسمته .. ومضى إلى مكة كغريب جاء لبعض شأنه .. وراح يتلطف مع الناس ويسأل حتى عرف مكانهما ، فإذا هما فى سجن تقوم عليه الأسوار .. وإذا هما مقيّدان لا يستطيعان حراكا .. ولكنه لم ييأس .. ولم يهن .. وإنما انتهز ليلة ظلماء هوجاء الريح .. فتسلّق الاسوار فى غفلة من الحراس ٠٠ وهبط الى السجن ، وتحسس الطريق إلى السجينين حتى عثر عليهما ٠٠ وسرعان ما فك قيودهما ٠٠ وخرج بهما مستخفيا إلى بعير كان قد أعدّه سرا خارج مكة .. وعاد بهما إلى الرسول الكريم ، الذى سرّ بنجاتهما

سرورا كبيرا وحمد الله وأثنى على شجاعة الوليد وعلو همته ..

وتتحدث كتب التاريخ على مختلف مصادرها عن شجاعة هشام بن العاص فى الحروب .. وفى إخلاصه وتفانيه لنشر دعوة الإسلام وإعلاء كلمة الله فى الأرض .. فما من مهمة عسكرية يرسله الرسول فيها إلا ويعود مؤزرا بالنصر والتوفيق .. وقد روى عن الترمذى والنسائى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن هشام وأخيه عمرو : « ابنا العاص مؤمنان .. هشام بن العاص .. وعمرو بن العاص » .

والايمان مرتبة أعلى من الإسلام .. وما من شك فى أن كل مسلم يتمنى أن يشهد له الرسول الكريم شهادة كهذه .. وليس بعد شهادة الرسول شىء ..

ولم يكن هشام بطلا صنديدا فى الحرب وحسب .. ولم يكن مؤمنا عظيم الايمان فقط .. وإنما كان على رجاحة عقل وحسن تدبير وبلاغة قول .. فلا عجب أن وثق به أبو بكر رضى الله عنه ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأرسله إلى ملك الروم مندوبا عنه فى التفاوض معه لشأن ما من شئون الدعوة الإسلامية ، فكان نعم المندوب ، وخير السفير ..

ثم وقعت معركة أجنادين بين الروم والمسلمين فى أرض فلسطين .. وشارك فيها هشام وأبلى بلاء حسنا .. وكان معه أخوه عمرو وقد أعان كل منهما أخاه استعدادا للمعركة .. وفى هذه المعركة ، لاحظ هشام بعض التراخى فى صفوف المسلمين .. فاندفع إلى قلب الأعداء ، وقد سيطرت عليه الحماسة .. وغلبه الشوق للاستشهاد مع النصر .. وأرسل صيحته المشهورة يحث بها إخوانه فى الجهاد :

« أنا هشام بن العاص .. أمن الجنّة تفرّون » ..

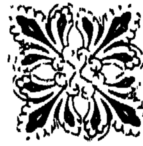
ويتدافع المجاهدون وراءه يتسابقون إلى الاستشهاد .. أو إلى الجنة .. وكان لهشام ما أراد .. فانتصر المسلمون .. واستشهد هو .. وقال أخوه عمرو بعد أن جمع أشلاءه من أرض المعركة ..

« أيها الناس .. إن الله قد استشهده .. ورفع من روحه » ..

وظلّ عمرو كما سبق القول ، يتحدث عن أخيه هشام ويذكر فضله ، ويقول :

لقد شاركنا فى المعركة .. وأعان أحدنا الآخر ، وعرضنا أنفسنا على الله .. وكلنا يسأل الله الشهادة ، فقبله وتركنى .. وحرمتها ورزقها ..

ألا ما أعظم هؤلاء الرجال .. ألا إن فى سيرتهم لعبرة ومثلا يحتذى .. وحسبهم مكانة عند الله .. أنهم كانوا يتسابقون إلى التضحية بالنفس فى سبيل الله ، ويتفاخرون ، لا بالأحساب والأنساب .. وإنما بالسبق إلى الشهادة والفداء ..



« الجارود الذى فرح بإسلامه الرسول »

فى العام العاشر للهجرة المحمدية ، كان بعض الصحابة جالسين حول الرسول صلى الله عليه وسلم حين رأوا البشر يعلو وجهه الكريم فجأة .. وقبل أن يحاول أحدهم أن يعرف سرّ هذا البشر الذى أضاء به وجه الرسول الكريم ، قال عليه الصلاة والسلام ، مشيرا إلى الجنوب الشرقى :

« سيطلع من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق » ..

وتلفّت الصحابة فيما بينهم .. وغمرهم الحياء فلم يسألوا عن كنه هذا الركب ، ولا من أى القبائل يتكوّن .. ولا من أى المناطق يأتى .. ولم يستطع عمر رضى الله عنه صبرا ، فأسرع براحلته حين رأى غبار الركب من بعيد ، واقترب منهم وقال لهم :

ـ من القوم .. ؟

فأجاب كبيرهم :

ـ من بنى عبدالقيس ..

وعاد عمر رضى الله عنه يسأل :

ـ فما أقدمكم إلى هذه البلاد ؟ التجارة .. ؟

فقالوا :

ـ لا ..

قال عمر :

ـ أما إن النبى صلى الله عليه وسلم قد ذكركم آنفا .. فقال خيرا ..

ووصل الركب إلى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، فرحب بهم وحياهم بتحية

الإسلام ، واستبشر بمجيئهم .. وقال عليه الصلاة والسلام لهم :

ـ مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى ..

وكان كبير القوم هو أبو غياث ـ بشر بن عمرو بن المعلى العبدى ـ من منطقة الخليج العربى .. وسيد بنى عبس ، وكبير قومه ، وحامل لواء الشرف بينهم .. وقد أطلقوا عليه اسم « الجارود » بعد غارة قام بها على أعدائه فأتى عليهم .. ولم يبق منهم باقية ، أو جرد منهم الدنيا .. فسمّوه « الجارود » ..

وقد بلغت شجاعته وأريحيته كل أنحاء الجزيرة العربية ، ولهذا غمر البشر وجه الرسول عليه الصلاة والسلام حين علم أن هذا « الجارود » قد رأس ركبا من قومه إلى الرسول الكريم ..

وعرض الرسول صلوات الله عليه وسلامه على الجارود وقومه الإسلام .. وكان الجارود يدين بالنصرانية ، ومن ثم قال للرسول :

ـ ولكننى لست مشركا .. وإنما أنا من أهل الكتاب .. أدين بالنصرانية ..

وهنا تحدث إليه الرسول الكريم عن الدعوة الإسلامية التى جاءت خاتمة للديانات الإلهية ، وتأكيدا لرسالة التوحيد ، والإيمان بالله الواحد القهار .. وأفاض الرسول الكريم فى حديثه عن الإسلام ورسالته الأبدية للبشر .. حتى انشرح صدر الجارود للأمر ، إلا أنه رأى أن يثبت ويحاور الرسول فقال :

ـ إنى كنت على دين .. وإنى تارك دينى لدين .. أفتضمن لى دينى .. ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« أنا ضامن لك أن قد هداك إلى ما هو خير منه » ..

فعاد المنذر بن بشر ـ الجارود ـ يقول :

ـ إن لى دينا .. فهل إن تركت دينى ودخلت فى دينك .. ألا يعذبنى الله .. ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

ـ نعم ..

وعندئذ أعلن المنذر بن بشر ـ الجارود ـ إسلامه بلا تردد :

وسرّ النبى عليه الصلاة والسلام وفرح به ، وقرّبه منه وأدناه وكرّمه ..

وقد بلغ من حسن إسلام ـ المنذر بن بشر ـ الجارود ـ وتفانيه فى خدمة الدين الإسلامى ، وتفقهه وعلو شأنه .. أن قال فيه عمر بن الخطاب ..

ـ لولا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن هذا الأمر (الخلافة) لا يكون إلا فى قريش » لما عدلت بالخلافة عن الجارود بن بشر بن المعلى ، ولا تخالجنى فى ذلك الأمور ..

قال عمر هذا بعد أن رأى أن الجارود من الرجال الأشداء فى الإسلام ، الذين لا يخافون فى الحق لومة لائم ، ولا يخشى أن يجهر بكلمة الصدق ، وكثيرا ما كان يراجع عمر ـ وهو الخليفة الحازم ـ فى كثير من الأمور .. ومن ثم كان إعجاب عمر به وتقديره له .

وقد شاءت إرادة الله أن تمتحن قوة إسلامه ، فلم يجد الدواب التى تحمله وقومه إلى ديارهم ، فطلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يعطيه ما يركبونه ، فاعتذر الرسول الكريم إليه قائلا :

ـ ما عندى ما أحملكم عليه ..

فقال الجارود :

ـ إن بينى وبين بلادى ضوال .. أفأركبها .. ؟

وكان يقصد أن فى الطريق إلى دياره دواب ضالة وشاردة .. وقد شاء لقوة ايمانه أن يسأل الرسول عن أمرها .. هل يحق له أن يركبها .. فقال له الرسول ناهيا :

ـ إنما هى حرق النار .. فلا تقربها .. وإياك .. وإياها ..

ونقف هنا قليلا ، لنقول إن هذا النهى ينسحب على كل مال يعثر به أحد فى الطريق .. إنه محرم عليه ، وإن لم يكن له صاحب يطالب به فيما بعد .. فهو إلى خزينة الحكومة المكلّفة بالإنفاق العام ..

ولم يغضب الجارود لهذا رغم شدة حاجته إلى ما يركبه وقومه .. وإنما ودّع الرسول الكريم شاكرا ، وعاد إلى دياره صابرا .. وهناك كرّس حياته للدعوة ، وقام بتعاليم الإسلام فى حماس وإخلاص ، لا يصرفه عن ذلك بعد المسافة بينه وبين مقام الرسول عليه الصلاة والسلام ..

ويقول ابن عبدالبر فى كتابه الدرر ، إن الجارود كان يحب أن ينشد الأبيات التالية الدالة على حسن إسلامه وصدق يقينه :

شهدت بأن الله حق وسامحى فبات فؤادى بالشهادة والنهض

فأبلغ رسول الله عنى رسالة فإنى ضعيف حيث كنت من الأرض

فإن لم تكن دارى بيثرب فيكم فإنى لكم عند الإقامة والخفض

وأجعل نفسى دون كل ملمّة لكم جنة من دون عرضكم وعرضى

وظل الجارود فى جهاده والسعى لإعلاء كلمة الله ، ينتقل بين القبائل على الخليج فيما بين البحرين والبصرة ، يدعو إلى كلمة الحق ، لا تلهيه عن ذلك تجارة ، ولا مال ، ولا جاه .. وقد ظل على ذلك حتى تواترت الأخبار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام قد لحق بربه ..

وفوجىء الجارود بارتداد عدد من قومه عن دين الإسلام وكانوا به حديثى العهد .. فأسرع إليهم ، وأنكر عليهم فعلتهم .. وصاح فيهم بالشهادة « إنى أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمدا عبده ورسوله » ثم هتف :

ـ وإنى أكفر من لم يشهد بذلك ·

وهنا انبرى واحد من بنى عبدالقيس يقول للجارود :

ـ لو كان محمد نبيا لما مات ·

وسارت فيه هذه الكلمة .. وارتد عدد كبير منهم عن دين الإسلام .. ولكن الجارود عاد وجمعهم إلى كلمة سواء .. وقال مجادلا بالحجة الناصعة ..

ـ يا معشر عبدالقيس .. إنى سائلكم عن أمر فأخبرونى به إن علمتموه .. ولا تجيبونى إن لم تعلموه ..

فقالوا :

ـ سل ما بدا لك ..

قال :

ـ أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيا مضى .. ؟

قالوا :

ـ نعم :

قال :

أتعلمونه أم ترونه .. ؟

قالوا :

ـ لا بل نعلمه .. ؟

قال :

ـ فما فعلوا ..

قالوا :

ـ ماتوا ..

قال :

ـ فإن محمدا صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا .. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ..

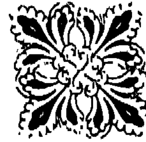
ثم ردد قول أبى بكر رضى الله عنه :

ـ « أيها الناس .. إن كان محمد قد مات ، فإن الله حى لا يموت » ..

وهنا هتف قومه :

ـ « ونحن نشهد أن لا إله إلاّ الله .. وأن محمدا عبده ورسوله .. وأنت سيدنا وأفضلنا » ..

وهكذا عاش الجارود بطلا .. مؤمنا ، عظيم اليقين بدين الإسلام ، وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجعله مع الشهداء فى الجنة ، فجعله على رأس جيش من جيوش الإسلام المرسلة إلى بلاد فارس فى عهد عمر بن الخطاب فى السنة الحادية والعشرين من الهجرة .. وظل يحارب ويجاهد حتى كتبت له الشهادة ، فعاش عظيما ومات شهيدا ٠



« بطل بلا أضواء »

إنه أبو سَبْرة بن أبى رهم ..

اسمه الحقيقى رهم .. وأبوه سبرة بن عبد العزى أحد زعماء بنى عامر .. وأمه هى برة بنت عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام ..

وهو على هذا يكون ابن عمة الرسول عليه الصلاة والسلام ..

ويكون الرسول ﷺ ابن خاله ..

ومع هذه الوشائج الوطيدة من القربى ، ومع هذه الصلة القوية من الرحم بينه وبين خاتم النبيين وسيد المرسلين ، إلا أن هذا المجاهد البطل عاش ومات دون أن تسلط عليه أضواء التاريخ كما حدث لغيره ..

ويرجع السبب فى هذا إليه هو .. كان يؤثر العزلة والتعبّد والبعد عن المجالس والانزواء ليكون مع الله دائما ، ولكنه إذا جد الجد ، كان فى طليعة المجاهدين الأبطال ..

آمن بالرسول وهو غض الشباب ، فأضاف إلى روابط القربى وصلة الرحم ، أواصر الحب النابع من الإيمان برسالة ابن خاله ، النبى الكريم ، محمد عليه الصلاة والسلام ..

وكان متزوجا بأم كلثوم بنت سهيل بن عمرو .. وقد أسلمت معه زوجه قبل أن يسلم أبوها سهيل بن عمرو الذى كان فى بداية ظهور الإسلام من أشد المناوئين للرسول الكريم ، كما كان أحد المشركين فى موقعة بدر قبل أن يفتدى نفسه بالمال .. وقد ظل سهيل على شركه حتى دخل الإسلام بعد فتح مكة .. وحسن إسلامه ، واستشهد فى موقعة اليرموك ..

وكان أبو سبرة قد نشأ بين بنى عامر يتيم الوالد ، فقد مات أبوه وهو صغير ، وتزوجت أمه برة بنت عبدالمطلب أحد سادة المخزوميين ـ وهو عبد الأسد بن هلال المخزومى وانتقلت معه للحياة بين بنى مخزوم ، تاركة ابنها « رهم » أبا سبرة ، بين قومه من بنى عامر ٠٠

وأحبه قومه لدماثة خلقه وهدوء طباعه ، ولعل هذا اليُتْم هو الذى جعله يعيش هادئا بين الناس ، خجولا ، مؤثرا للعزلة والانطواء ٠٠ ولكن قومه ، من فرط حبهم له ، زوّجوه إحدى فتياتهم المشهورات بالجمال والحسب ٠٠ وهى أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو بن عبد شمس القرشى العامرى ـ من بطون لؤى ٠

وأسلمت مع أم كلثوم بنت سهيل ، أختها سهيلة زوجة أبى حذيفة بن عتبة الذى أسلم بدوره معها ، كما أسلم أخوها عبد الله بن سهيل ، وأعمامها : حاطب وسليط والسكران أبناء عمرو بن عبد شمس ٠٠

ولما أذن الرسول لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة للمرة الاولى ، كان أبو سبرة وزوجه وأختها وأخوها وأعمامها من أوائل المهاجرين إلى تلك الديار الأفريقية ٠٠

وقد أذن الرسول الكريم لهم بهذه الهجرة حين رأى شدة ماأصابهم من بلاء على أيدى قريش ٠٠ ولم يكن الأمر بالقتال دفاعا عن النفس قد هبط على الرسول الكريم بعد ، فقال لهم ٠

ـ لو خرجتم إلى الحبشة ، فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد ٠٠ وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه ٠٠

وكانت تلك أول هجرة فى الإسلام ٠٠ وكان أبو سبرة من هؤلاء المهاجرين الأوائل ٠٠

وبدت الحياة فى ذلك المهجر طيبة فى أول الأمر ٠٠ ولكن مرور الأيام أثارت حنين الغرباء إلى ديارهم ٠٠ وكلما طال الوقت اشتد الحنين ، فقرر أكثر المهاجرين يومذاك العودة إلى الوطن ٠٠ فإن ناره أفضل من جنة الغربة ٠٠ فعادوا بعد ثلاثة أشهر ٠٠

ولكن قريشاً كانت سدرت فى غيّها ، واشتد أذاها بالمؤمنين من أتباع الرسول الكريم ·· بل لقد تمادت فى هذا الإيذاء ، كما نعرف جميعا ، فدفعت بالمؤمنين إلى شعب فى الجبل ، وحرمت على أهل مكة التعامل معهم بيعا وشراء ، وعلّقت فى داخل الكعبة صحيفة تحمل تحريم التعامل مع أتباع الرسول ··

ونقف هنا برهة لنقول إن بنى هاشم وبنى المطلب ، المسلم منهم والمشرك ، انحازوا إلى الرسول وأتباعه فى الشعب ـ ماعدا أبا لهب ـ وشاركوا المؤمنين هذا العذاب وهذا الجهد الجهيد ـ حتى بلغ بهم الأمر أنهم راحوا يبحثون عن ورق الشجر ليقتاتوا به ··

وأمر الرسول الكريم ، وهو فى هذه المحنة بعض أتباعه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة ، فهاجر إليها نحو مائة مسلم ومسلمة ، منهم ثمانى عشرة امرأة ·

وكان أبو سبرة فى هذه المرة أيضا من أوائل الذين أطاعوا الرسول ، فهاجر للمرة الثانية إلى الحبشة مع زوجه أم كلثوم بنت سهيل ··

وفى خلال هذه الهجرة الثانية ، أسلم عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فأعزّ الإسلام به ، ونقضت الصحيفة ، وخرج المحاصرون فى الشعب إلى مكة ·· ولكن قريشاً لم تكف عن التنكيل بالمستضعفين بينهم ·· وكان أبو سبرة واحدا منهم بعد أن عاد للمرة الثانية إلى مكة مستخفيا ومعه اثنان وثلاثون من الذين هاجروا معه ··

وكان الإسلام قد أخذ ينتشر فى المدينة ، ولا سيما بعد بيعة العقبة الثانية ، التى أعلن فيها مسلمو المدينة أنهم كفيلون بحماية الرسول الكريم وصحبه إذا هاجر إليهم ··

وعندما هاجر الرسول وصاحبه أبو بكر إلى المدينة وراح يؤاخى بين الأنصار والمهاجرين ، كان من نصيب أبى سبرة أن يتآخى مع سلمة بن سلامة بن دقش ·· وكان أبو سبرة قد نزل فى المدينة ببيت منذر بن محمد بن عقبة ـ الأنصارى ـ وكان ينزل معه فى نفس البيت الزبير بن العوام ··

فى خلال هذا كله ، كان أبو سبرة مثالا للمسلم المؤمن المطيع لأوامر الرسول

الكريم ، المستمسك بأهداب دينه الجديد ، المتفانى فى طاعة الله ، الباحث دائما عن مكان يعبد فيه الله بعيدا عن أذى المشركين ..

كان من أولئك الأوائل الذين باعوا الدنيا ، فلم يعد أحد فيها يريد منها إلا بقدر مايقربه إلى الله ورسوله .. وكان من أولئك الذين يعملون فى هدوء وصمت .. إلا أن أعمالهم الطيبة الخالدة كانت تبرزهم إلى الضوء حتى لو لم يسعوا إليه ..

لقد كان أبو سبرة بين الأبطال المبرزين فى غزو بدر .. ولكنه ، على حسن بلائه ، لم يجعل أحدا يتحدث عنه أو ينوّه ببطولته .. وهكذا كان دائما فى جميع غزوات الرسول .. لم يتخلّف عن غزوة ، ولم يقعد عن جهاد .. يعيش مع إخوانه هادئا ، عابدا ، لا يكاد يشعر به أحد ، فاذا جد الجد ، واحتدم القتال ، كان فى الصفوف الأولى ، أسدا شجاعا ، لا يخافُ عدوا ، ولا يهاب كثرة ، وإنما يضرب فى الأعداء كما ينبغى أن يضرب البطل .. فإذا هدأت المعركة ، وتم النصر ، عاد إلى هدوئه وسكينته وعزوفه عن الناس ..

وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبعد أن ارتد المرتدون عن دفع الزكاة فى عهد أبى بكر ، وبعد أن قرر أبو بكر قتالهم ، كان أبو سبرة من المتقدّمين فى صفوف المسلمين دفاعا عن الإسلام من كيد المرتدين ..

ولم يسع أبو سبرة فى حياته إلى زعامة أو قيادة .. وانما عاش جنديا مناضلا فى حروب العراق وفارس ، ينشر الإسلام ، ويعلى كلمة الله ، لايبغى من وراء هذا جزاء أو مغنما أو مركزا ..

وظل أبو سبرة فى العراق مع إخوانه المجاهدين ، بعد أن فتح خالد بن الوليد جنوب العراق ، ثم انتقل بقسم من جيشه إلى الشام ، تاركا إمارة الجند فى العراق للمثنى بن حارثة ..

لم يهتم أبو سبرة بما كان يحدث من تغييرات فى قيادة جيوش المسلمين ، ولم ينحز إلى قائد دون قائد ، أو أمير دون أمير .. فحارب تحت لواء خالد بن الوليد ، وحارب

تحت لواء أبى عبيدة بن الجراح الذى استشهد فى معركة الجسر ٠٠ وعاد يحارب تحت إمرة المثنى بن حارثة ٠٠ الذى انتصر بالمسلمين فى معركة البويب بالقرب من الكوفة ٠٠

ثم كان مع عتبة بن غزوان حين أرسله سعد بن أبى وقاص بناء على تعليمات عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إلى منطقة كانت تسمى يومذاك منطقة « الهند » وتم فتح مدينة الأبلة ٠٠ وهى نفس المدينة التى خطها عتبة بعد ذلك فى عام ١٦ هجرية وسماها البصرة ٠٠

فى كل هذه الغزوات كان أبو سبرة الجندى ـ المجهول ـ البعيد عن أضواء الزعامة والقيادة وزخارف الدنيا ٠٠ وكان حسبه من جهاده مرضاة الله وإعلاء كلمة الله ، ونشر نور الإسلام بين ظلال الشرك والطغيان ٠٠

ولكن أعمال أبى سبرة وجهاده وشجاعته لم تكن لتغيب عن أعين القادة والأمراء ٠٠ إلا أنهم كانوا يتركونه وشأنه لما يعرفونه عنه من عزوف عن المظاهر ، وحب للعزلة والهدوء واقتصار على العبادة والتقرب دائما إلى الله ٠٠

على أن الأقدار أبت إلاّ أن تسلط بعض الضوء على هذا الصحابى الجليل الزاهد ، فإذا العلاء الحضرمى ـ والى البحرين ـ يقع مع جيشه فى كمين خطير وهو يغزو أرض فارس ، فأحاط به وبجيشه الأعداء ، وأصبح مهدّدا بالهلاك بين يوم وآخر ، فأرسل عمر بن الخطاب ، حين بلغته هذه الانباء ، إلى عقبة بن غزوان يأمره بإرسال نجدة كبيرة إلى العلاء الحضرمى فى فارس ٠٠ وأعدّ عتبة جيشا من المسلمين قوامه اثنى عشر ألف مجاهد ، بينهم عدد كبير من القادة والأبطال ٠٠ وجعل على رأس هذا الجيش أبا سبرة الذى قاد فأحسن القيادة ، والذى أثبت بانتصاره على الفرس وإنقاذ جيوش الحضرمى ، إنه جندى بطل ، وقائد مغوار ٠

ولما خرج عتبة بن غزوان إلى الحج ، استخلف على البصرة أبا سبرة والياً ، بعد أن استأذن فى ذلك عمر بن الخطاب ٠٠ ومات عتبة ٠٠ وظل أبو سبرة واليا بعد أن أقرّه عمر على الولاية ٠٠ ولكن أبا سبرة لم يحتمل هذا اللون من الدعة وأبهة الملك

وترف الحكم ، فطلب من عمر بن الخطاب أن يعفيه من هذا كله ، وأن يعيده جنديا بسيطا يقاتل فى سبيل الله ، وفى سبيل نشر الدعوة الإسلامية بين البشر ..

ولم يخيب عمر بن الخطاب رجاءه ، فانتهز أول فرصة سانحة ليحقق له الرجاء .. وذلك عندما تآمر أهل الأهواز وفارس بزعامة الهرمزان على قتال المسلمين ، كتب عمر إلى أمير الكوفة يأمره بتسيير جيش كبير لقتال هؤلاء المتآمرين .. وكان أبو سبرة على رأس هذا الجيش .. ومع عدد من جيش أبى موسى الأشعرى ، ثم فتح مدينة تستر المعروفة الآن باسم « ششتر » وهى فى شمال الأهواز .. وأسر الهرمزان ، وأرسله مقيدا إلى عمر بن الخطاب ، واستمر أبو سبرة فى قتاله للفرس حتى فتح مدينة السوس التى تعرف اليوم باسم « شوش » وتقع فى غربى تستر ، ثم سار إلى مدينة جنديسابور التى كانت تقع بين الأهواز وتستر ففتحها .

ولما شعر أبو سبرة أن صحته لم تعد تساعده على المزيد من القتال وخشى أن تخذله قواه فى خلال المعركة .. عاد إلى مكة بعد عشرين عاما قضاها فى الجهاد وعاش للعبادة والزهد والتقرب إلى الله ، حتى وافاه الأجل فى عهد عثمان بن عفان عام ٣٥ من الهجرة ..



« أسامة بن زيد »

« أصغر قائد فى الإسلام »

أسامة بن زيد :

أصغر قائد فى الإسلام ، رأى النبى ﷺ أن يكرم ذكرى أبيه ، أبى أسامة ، زيد بن حارثة ، فعقد له ـ حين بلغ الثامنة عشرة من عمره ـ لواء الجيش المسير لقتال الروم ، ليؤدب الذين سخروا من دعوة الرسول ، واعتدوا على رسله .. وقتلوا أصحابه .

إذن من هو أبو أسامة ؟

من هو الرجل الذى كانت له هذه المكانة الرفيعة فى قلب الرسول حتى رأى أن يكرم ذكراه برفع ابنه الشاب إلى مركز القيادة ؟

إنه زيد بن حارثة ، من أشراف العرب وأحرارهم ، ينتهى نسبه إلى لؤى بن كعب .

وقد شاء القدر أن يقع أسيرا وهو فى مرحلة الطفولة ، إذ انقضت عصابة من بنى القين بن جسر على قافلة كانت فيها أم زيد « سعدى » فى طريقها لزيارة قومها بنى معن . وأسر زيد وبيع فى سوق عكاظ بأربعمائة درهم ، وقد اشتراه حكيم بن خزام لعمته السيدة خديجة بنت خويلد .. وقد ظل فى خدمة خديجة حتى تزوجت بالرسول صلى الله عليه وسلم فوهبت له زيدا ، وكان عندئذ فى الثامنة من عمره ..

وكان والد زيد قد حزن حزنا شديدا ، فلما علم يوما بأنه عند رسول الله ، أسرع إلى مكة ، وسأل عن الرسول ، ثم قدم عليه وهو فى المسجد .

وقال له :

ـ يا ابن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم حرم الله ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ٠٠ جئنا لك فى ولدنا عندك ، فامنن علينا وأحسن فى فدائه ٠٠

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

ـ وما ذاك ؟ ٠٠

ـ زيد بن حارثة ٠٠

فرد الرسول عليه الصلاة والسلام قائلا :

ـ أو غير ذلك ؟ ٠٠ ادعوه فخيّروه ٠٠ فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ٠٠ وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار ٠٠

فلما جاء زيد ، قال له الرسول مشيرا إلى أبيه ومن معه من بنى قومه :

ـ أتعرف هؤلاء ؟

قال زيد :

ـ نعم ٠٠هذا أبى ، وهذا عمى ٠٠

فقال له الرسول :

ـ فأنا من علمت ٠٠ وقد رأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما ٠٠

فقال زيد :

ـ ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ٠٠ أنت منى بمكان الأب والعم ٠٠

فقال أبوه :

ـ ويحك ؟ ٠٠ أتختار العبودية على الحرية ؟ ٠٠

فرد زيد قائلا :

ـ رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا ٠٠

فلما رأى الرسول هذا ، أخرجه إلى الملأ وقال :

ـ اشهدوا أن زيدا ابنى يرثنى وأرثه ٠٠

وهنا انصرف والد زيد وقد طابت نفسه ٠٠

وقد كان زيد من أوائل المسلمين ، بل قيل أنه رابع أربعة دخلوا الإسلام ٠٠ وقد شهد غزوة بدر الكبرى ، وكان البشير الذى حمل إلى أهل المدينة أنباء انتصار الإسلام على الكفر ٠٠ وقد أراد الرسول أن يعبر له عن مكانته فى نفسه ، فزوجه من حاضنته أم أيمن ، فأنجبت له أسامة ، وقد قالت عائشة :

ـ مابعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلا أمره عليها ٠٠

هذه مكانة زيد من الرسول ؟ ٠٠ فهل من عجب أن تكون لابنه أسامة مكانة خاصة فى قلب الرسول ؟ ٠٠

لقد شاءت إرادة الله أن يقع زيد ، وهو طفل ، أسيرا ، وأن يباع ـ كما بيع يوسف عليه السلام من قبل ـ إلى السيدة خديجة ليكون بمثابة الابن للرسول ٠٠

وهكذا أتيح لأسامة أن يشب فى كنف رسول الله ، وأن يظفر بحبه وحنانه ، حتى لقد قال الرسول عنه :

ـ إن أسامة بن زيد لأحب الناس إلىّ ، وأنا أرجو أن يكون من صالحيكم ، فاستوصوا به خيرا ٠٠

وكان أسامة ، حين استشهد أبوه ، فى الخامسة عشرة من عمره ، وما إن بلغ الثامنة عشرة ، حتى رأى الرسول ، تكريما لذكرى أبيه المجاهد ، أن يعقد له لواء الجيش المسير لقتال الروم ٠٠

ولكن مرض الرسول ، وانتقل إلى جوار ربه ، وهنا رأى أسامة أن يترك للخليفة الجديد حرية اختيار أمير الجيش ، ولكن أبا بكر خليفة الرسول أبى إلا أن ينفذ رغبة النبى عليه الصلاة والسلام ٠٠

على أن هذا الوضع لم يكن يرضى بعض الصحابة فى حياة الرسول ، ومن بينهم عمر بن الخطاب ٠٠ لحداثة عهد أسامة بالحرب ، ولصغر سنه ٠٠ ولكن الرسول غضب أشد الغضب حين علم بهذا الأمر ٠٠ وأوقف كلا عند حدوده ٠٠ إلا أنه ما إن مرض وانتقل الى جوار ربه حتى عاد المعترضون إلى الاعتراض ، وذهب عمر إلى

أبى بكر٠٠وأنهى إليه رغبة المعترضين على إمرة أسامة للجيش ، وهنا وثب أبو بكر وأمسك بلحية عمر وقال له :

ـ ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ٠٠ استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أنزعه ؟ ٠٠ لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ٠

فخرج عمر إلى الملأ ، فقالوا له :

ـ ماذا صنعت ؟

قال :

ـ امضوا ٠٠ ثكلتكم أمهاتكم مالقيت بسببكم من خليفة رسول الله ٠٠

* * *

وقد أراد أبو بكر أن يبالغ فى تكريم أسامة وفاء لذكرى رسول الله ، فخرج يشيع جيشه سائرا على قدميه ، وأسامة راكب ، فقال له أسامة :

ـ ياخليفة رسول الله ٠٠ لتركبن أو لأنزلن ٠٠

فرد أبو بكر قائلا :

ـ والله لانزلت ولا أركب ٠٠ وما علىّ أن أغبرّ قدمىّ ساعة فى سبيل الله ٠٠

ولعل الوصية التى أوصى بها أبو بكر أسامة فى شئون الحرب ، تعتبر أول دستور للقواعد والمبادئ الإنسانية التى أخذت بها الدول المتحضرة بعد ذلك بعدة قرون ٠٠

لقد قال أبو بكر لأسامة يوصيه يومذاك :

ـ لاتخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا ٠٠ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ٠٠ وسوف تقدمون على قوم قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا ٠٠ اندفعوا باسم الله ٠٠

* * *

غاب أسامة فى هذه الغزوة أربعين يوما عاد بعدها ظافرا مكللا بالنصر ، ولكنه وجد أبا بكر مشغولا فى حروب الردة الطاحنة ، فأسرع إلى الوقوف بجانبه حتى استرد للإسلام هيبته ٠٠ وحتى أعادت انتصاراته البشر فى نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الردة ، فلا عجب بعد ذلك أن استخلفه أبو بكر على المدينة عند عودته إليها ٠٠

ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة ٠٠ أكرم من أكرمه رسول الله وخليفته ٠٠ ففرض لأسامة خمسة آلاف درهم ٠٠ وفرض لابنه « ابن عمر » عبد الله ـ ألفين ٠٠ ومن ثم قال عبد الله :

ـ فضلت علىّ أسامة ؟ ٠٠ وقد شهدت مالم يشهد ؟ ٠٠

فرد عليه عمر الخليفة العادل قائلا :

ـ إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك ٠٠ وكان أبوه أحب إلى رسول الله من أبيك ٠٠

وحين آلت الخلافة إلى عثمان بن عفان ، أكرم أسامة ، وقرّبه إليه ، وأولاه ثقته حتى إذا اضطربت الأمور وبدت بوادر الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان ، أرسله عثمان إلى البصرة ، وأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة ، وعبد الله بن عمر إلى الشام ، وعمار بن ياسر إلى مصر ٠٠ ليبحثوا عن أسباب هذا الاضطراب ٠٠ ويقفوا على حقيقة الحال فى البلاد الإسلامية ٠٠

ولما قتل عثمان حزن عليه أسامة حزنا شديدا ٠٠ ولعل شدة حزنه هى التى جعلته يعتزل أمور السياسة ويمتنع عن البيعة لعلى بن أبى طالب ، ثم يرحل إلى دمشق ٠٠

وعاش أسامة ، بعد عودته من دمشق إلى المدينة ، حتى آخر أيام معاوية ، أى حتى سنة ثمان وخمسين ، وقيل تسع وخمسين هجرية ، وكان رضى الله عنه يحفظ بالكثير من أحاديث رسول الله ، وقد روى عنه من الصحابة : أبو هريرة وعبد الله بن عباس ، ومن كبار التابعين ، أبو عثمان النهدى وأبو وائل رضى الله عن الجميع ٠٠

تم طبع هذا الكتاب بدار عكاظ
سنة ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م